الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المركز الجامعي أحمد بن يحي الونشريسي تيسمسيلت

معهد الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

دراسة في كتاب:

(البلاغة العربية أصولها وامتداداتها) مُحَمَّد العمري

إعـــداد:

- كحلي رابح
- دنداني علي

إشـراف الأستـــاذ:

- الدكتور دردار بشير

أعضاء لجنة المناقشة

د.	المركز الجامعي تيسمسيلت	رئـيـســـا
د.	المركز الجامعي تيسمسيلت	عضوا مناقشا
د.	المركز الجامعي تيسمسيلت	مشرفا ومناقشا

السنة الجامعية:

1438/1437هـ - 2017/2016م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

أهدي هذا العمل إلى من تمنيت أن يكونا معي

إلى أبي وأمي عليهما رحمة الله

كما أهدي كذلك إلى الإخوة والأخوات وأولادهم

خاصة أحمد الصغير وكل الأهل وكل من ساعدني

وشجعني من الأساتذة والطلبة والأستاذ بوشنافة سعيد

كحلي رابح

وأنا بدوري أهدي هذا العمل إلى والدي وجدتي عليهما

رحمة الله

وإلى كل العائلة الكريمة وإلى كل من ساعدني وإلى كل

الأساتذة والطلبة...دنداني علي

شكر

الحمد لله الذي وفقنا ليصل هذا العمل إلى هذه اللحظة، شكرا لكل أساتذة المركز الجامعي تيسمسيلت، ونخص منهم بالذكر الدكاترة التالية أسمائهم: مارسي رشيد، خلف الله بن علي، بلحسين، يعقوبي قدوية.

كما نرفع من هذا المقام خالص عبارات الشكر لمن تولى رعاية هذا العمل وأشرف عليه... الدكتور بشير دردار وعلى توجيهاته وتوضيحاته الثمينة

وأخيرا الشكر لكل الذين قرئنا عليهم الأحياء قبل الأموات والحمد لله وكفى وخير الصلاة على النبي المصطفى

مقدمة :

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله مُحَمَّد عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليم سيد البلغاء وشيخ الفصحاء، أما بعد:

فإن أولى العلوم بالتعلم بعد كتاب الله تعالى وسنة نبيه علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، التي يُعرف بها وجوه الإعجاز.

كانت الدراسات الأدبية والنقدية تتوزع على ربوع المناهج والعلوم، تتشاكل فيما بينها، هذه العلوم، كانت لمملكة واحدة تناساها الزمن، وغيّبتها الظروف، وفي الفترة الأخيرة وبعد النبش في هذه الدراسات النقدية والأدبية، ظهرت معالم تلك المملكة المنسية بفضل التنقيب والحفْرِ عنها وعن أساساتها، وتبيّن أن الاتجاهات المتنازعة حول حمى النص والخطاب، لا تكتسب شرعيتها إلاّ من خلال ضبط أصولها، لقد عادت البلاغة من دون أن تُقصي تلك الممالك المتعددة التي قامت نيابة عنها في زمن اختفاءها، إنما عادت من أجل استعادة ما ذهب من أراضيها، حيث عادت بقوتها وسلطانها على الخطاب وعلى الإنشاء والقراءة.

هذا البحث الذي هو «مشروع قراءة» يريد أن يضيف للمشروع البلاغي إضافة يسيرة، وكما هو معلوم إنّ الدراسات الغربية ما كانت لتعرف ذاك التوسع لولا أنها وسّعت حدودها إلى الشعرية والاقناعية والسردية، وغيرها من الخطابات التي أصبح لها بلاغتها الخاصة بها، وتندرج تحت بلاغة عامة تحتوي كل الأنواع، ولم تصل الدراسات الغربية إلى هذا النضج لولا التنقيب عن البلاغة القديمة وإعادة قراءتها، وفهم جزئياتها والمراحل التي مرت بها وهذا سبب نجاح البلاغة الغربية.

فإذا تمكنا من قراءة ماضينا الثقافي والبلاغي، بالتنقيب عن خلفياته، والكشف عن أنساقه وقراءته قراءة داخلية ونفهم السابق باللاحق، مع طرح أسئلة التلقي، عندها يمكن النهوض بالبلاغة العربية لمحاورة الآخر، ونجعلها دوماً حاضرة في مصاف البلاغة العالمية.

إن البلاغة لا تزال مُغيّبة خاصة في المناهج التعليمية، أو الإجراءات التطبيقية التي تتخذ مقولاتها محوراً للتطبيق على النصوص والخطابات ونجد اتجاهاتها الفاعلة عبر تاريخها ما تزال مغيبة وغير مفهومة ولم يكشف عن كثير من مكوناتها ومقاصدها.

وفي العقود الأخيرة ظهرت دراسات جادة تغرف من وعاء الغرب، وتعمل على حساب آخر كما أنها تعمل على احترام الجديد الوافد بفهم أصوله وتبّين خلفياته، وتمحيص النظر في مقاصد أصحابه، وأقامت حواراً بين الجديد والقديم العتيد، تمثلت هذه الدراسات والبحوث في أعمال مُحَمَّد العمري، وعبد الله صولة، وحمادي صمود، ومُحَمَّد مفتاح، وغيرهم، وبرز مُحَمَّد العمري من خلال أعماله التي غلب عليها التنظير والترجمة والتطبيق، فكان كتابه «البلاغة العربية أصولها وامتداداتها» الذي حاول الكشف فيه عن أنساق البلاغة واتجاهاتها في ضوء المناهج الغربية، بمعونة الدرس الجديد المتمثل في البنيوية والتداولية ونظرية التلقي، فكان هذا المشروع نموذجاً نترصد من خلاله خلفيات القراءة وآلياتها والنتائج المحصل عليها.

ومن الأسئلة التي حرّكت هذا البحث: ما هي الجوانب التي تم الكشف عنها في البلاغة العربية في ضوء الدرس البلاغي الجديد من خلال مشروع مُحَمَّد العمري؟ وما هي الخلفيات النظرية والآليات التطبيقية المسخّرة لتحقيق ذلك؟

وتزامنت معه أسئلة فرعية أهمها: ما البلاغة العامة؟ وهل تستوعب الوافد الجديد وتطور التراث القديم؟ ما هي الجوانب التي كشف عنها من موروثنا البلاغي؟ هل تمكنّا من بناء أسس بلاغة عربية جديدة تمتلك القواعد النظرية والآليات التطبيقية لمقاربة الخطاب؟ وما هي الجوانب المغفلة في مشروع العمري وكيف يمكننا أن نواصل البحث عنها والتحقيق فيها؟

وقد تم تصميم البحث على نحو يتضمن ثلاثة فصول وخاتمة وقائمة للمصادر والمراجع، أما الفصل الأول فقد خصصناه لعرض تاريخ البلاغة منذ نشأتها عند اليونانيين، وتناولنا البلاغة العربية

بداية من العصر الجاهلي، وصدر الإسلام، وبني أمية، ثم عصر التأليف البلاغي وتطوره، ثم تطرقنا إلى مرحلة الجمود والتعقيد، وكان الفصل الثاني معنوناً بقراءة في العتبات النصية لكتاب العمري والذي ضم عتبة المناص والعنوان، والفصل الثالث الذي كان عنوانه قراءة في مشروع العمري في ضوء الدرس البلاغي الجديد، والذي ضم دواعي التجديد في البلاغة العربية، وقراءة المعاصرين للبلاغة العربية، والمشروع البلاغي الجديد، ثم الاستدراكات على الكتاب.

إن اختيارنا لهذا الموضوع نابع من حبنا الكبير للبلاغة العربية،فكان طريقاً نشق به رحلة البحث في قصر البلاغة.

أما المنهج الذي اعتمدناه في بحثنا فيتمثل في المنهج التاريخي الذي تتبعنا فيه تطور البلاغة العربية عبر العصور، وذلك في الفصل الأول، أما المنهج الوصفي فاستخدمناه في قراءة كتاب العمري من خلال الفصل الثاني والثالث، أما فيما يخص المصادر والمراجع التي اعتمدناها فقد كان النصيب الأوفر فيها لمؤلفات العمري، إضافة إلى مصادر التراث العربي البلاغي، ومراجع بلاغية ونقدية حديثة.

وفيما يخص الصعوبات التي واجهتنا فتتمثل في صعوبة كتاب البلاغة العربية أصولها وامتداداتها والمتمثلة في: كثافة القضايا البلاغية التي عالجها، واستخدام مناهج ونظريات غربية حديثة وصعوبة استيعابها في تطبيقه لها على الدرس البلاغي القديم.

في الأخير لا يسعنا إلاّ أن نشكر كل من مد لنا يد العون من الأساتذة الفضلاء و من زملائنا الطلبة والأصدقاء، ونخص بالذكر أستاذنا الفاضل دردار بشير الذي كان معنا طيلة رحلة البحث تحت قيادته،بنصائحه وإرشاداته ومنهجيته وضبطه، حيث اجتزنا معه الصعاب حتى أنهينا البحث ولله الحمد، فله منا كل الثناء والشكر.

حرر بتيسمسيلت يوم: 2017/06/13

رابح كحلي – علي دنداني

بطاقة فنية:

أفريقيا الشرق 2010 الطبعة الثانية

حقوق الطبع محفوظة للناشر

المؤلف: **د . مُحَمَّد العمري**

عنوان الكتاب

البلاغة العربية أصولها وامتداداتها

رقم الإيداع القانوني: 98/1709

ردمك: 5_113_25_9981

أفريقيا الشرق– المغرب

159 مكرر ، شارع يعقوب المنصور – الدار البيضاء

الهاتف: 0522259504_ 0522259813 - الفاكس:0522252920

مكتبة التصنيف التقني :الهاتف: 54/0522296753

تمهيد:

يبدو أن أقدم محاولة في كتابة تاريخ للبلاغة العربية كانت لأحمد مصطفى المراغي في كتابه «تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها»، ولعل أبرزها هو مؤلَّف شوقي ضيف «البلاغة تطور وتاريخ» الذي يمثل أحسن مرحلة للسرد التاريخي وتلخيص محتويات الكتب، وهي مرحلة تسعى للمحافظة على الرؤية التراثية، وإحياء الموروث القديم والتعريف به، ولذلك اعتمد شوقي ضيف المنهج التاريخي في التأريخ للبلاغة، أما المرحلة الثانية فيمثلها حمادي صمود من خلال كتابه «التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس(مشروع قراءة)»، والذي أَرَّخ فيه للبلاغة من منظور حداثي لساني، وقد اعترف حمود بأسبقية غيره في التأريخ للبلاغة، لكنه ينعت طريقتهم بالقصور، والسبب في ذلك يعود "إلى غياب جدلية التراث والحداثة في هذه المؤلفات وتصديها لدراسة التفكير البلاغي في الغالب، من منظور أحادي البعد"[1]، وجاء بعد ذلك مُحَمَّد العمري من خلال كتابه «البلاغة العربية أصولها وامتداداتها»، والذي يعتبر امتداداً لجهود سابقيه، حيث استفاد من عمل صمود في تكوين تصور عام عن تاريخ البلاغة العربية، معتمداً على آليات منهجية جديدة، مستقاة من مفاهيم البنيوية اللسانية في القراءة النسقية، وجماليات نظرية التلقي.

وقبل أن نقوم بدراسة كتاب العمري كان لزاماً علينا التمهيد لها بفصل، نعرض فيه للبلاغة منذ نشأتها الأولى عند اليونان، ومن ثم نتتبع مسارات تطورها عند العرب، ابتداءاً من العصر الجاهلي إلى عصر جمود البحث البلاغي.

[1] – حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس(مشروع قراءة)، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، دط 1981م، ص11.

المبحث الأول: البلاغة اليونانية

ارتأينا قبل الحديث عن ميلاد البلاغة العربية ومراحل تطورها، الوقوف عند بداية البلاغة في الحضارة الإغريقية، لما كان لها من تأثير في تطور هذا الفن في باقي الحضارات العالمية، خاصة الأوروبية والعربية الإسلامية.

وأول ما سنطرقه في محاولة التأصيل للبلاغة اليونانية، جماعة السفسطائيين، باعتبارهم البذرة الأولى لنشأة البلاغة الإنسانية.

1 – السفسطائيون:

لقد شهدت اليونان في القرن الخامس قبل ميلاد المسيح حركة علمية وثقافية وفكرية كبيرة كانت الفلسفة أحد أقطابها، حيث اشتغلت بالميتافيزيقا أو ما وراء الطبيعة، وذلك راجع لطبيعة المعتقدات الدينية اليونانية في تعدد الآلهة والحروب الناشئة من جرائها. في هذه الأثناء ظهرت جماعة السفسطائيين، "وقد اشتق الاسم من كلمة Sophia أي الحكمة، وهي نفس الكلمة التي اشتق منها الفلاسفة اسمهم وأصبحت كلمة فيلسوف Philosophe تعني محب الحكمة وكلمة سفسطائي Sophiste تعني معلم الحكمة"[1]، ولكن المعنى الأخير تغير، كون السفسطائيين قد تعرضوا لهجوم شديد، بدءاً من سقراط إلى أفلاطون.

كان السفسطائيون مهداً للبلاغة الاقناعية أو ما يعرف بالخطابة، التي تؤهل لاحتلال المراتب السياسية العليا في أثينا "فهم علموا المواطنين الضروريين للمشاركة في الحياة السياسية: فنون المناقشة والخطاب..."[2]، وهذا ما يدل على تحكمهم في فن القول، وقدرتهم على الإقناع بالحجة والدليل.

---

[1] – ينظر: أحمد درويش، النص البلاغي في التراث العربي والأوروبي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م، ص21.

[2] – غنار سكيريك– نلز غيلجي، تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة إلى القرن العشرين، تر: حيدر حاج إسماعيل، مراجعة نجوى نصر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2012م، ص90.

من أشهر السفسطائيين في اليونان القديمة نجد غورجياس المعروف بأنه خطيب بارع، قد "انتقل إلى ممارسة فن الخطابة بوصفها طريقة إقناع"[1]، وليست مجالا للنقاش والاعتقاد العقلي، فكان هدفه تغيير وجهات نظر المخاطَبين وآرائهم، أي التأثير على المستمعين.

كما نجد من زعماء السفسطائيين بروتاجوراس، الذي كان يتلقى أجراً باهظاً مقابل دروسه في الخطابة، وذلك ما أثار أفلاطون ليشن عليه هجوماً قوياً، لعلمه بشدة تأثير الخطابة وآثارها السلبية على المستمعين.والسبب في تمكن خطابة بروتاجوراس من نفوس المخاطبين، هو فلسفته المغايرة لعرف الفلاسفة اليونانيين من قبلهم، وتجاوزه للميتافيزيقا، تلك الفلسفة التي تدعو إلى "أن يهتموا بالإنسان ومشاكله وعلاقته بالطبيعة وبالغير"[2] وهو بهذا يكون واقعياً، فيجعل للإنسان موقعاً متميزاً وسط العالم الذي يعيش فيه، وأنه مركز التفكير في علاقته مع نفسه وغيره، وفي علاقته مع الطبيعة.

ولعل الجانب المهم في تاريخ البلاغة هو تفسير السفسطائيين لمفهوم "المهارات الفنية" في أسطورة إبيميتي* Epiméthée، وهي مهارات عملية يحتاجها الإنسان، إلا أن بروتاجوراس يؤكد على أهمية مهارة أخرى، ليضرب مثالاً عن طبيب تكون له مهارة فنية عند وصفه الطريق إلى العلاج لكن ماذا لو رفض المريض تناول الدواء، فنحن هنا بحاجة إلى مهارة لإقناعه، والشخص المناسب لهذه المهمة لابد أن يملك بلاغة القول، و"هكذا يضع بروتاجوراس المهارة العملية والقولية على قدم سواء بل إنه عند التأمل يجعل الأهمية لفن القول"[3]، فإذا كانت المهارات العملية تكتسب بالتعلم، فإن فن القول يجب أن يحظى بنفس ذلك الاهتمام.

كما تظهر مكانة الخطابة في المجتمع اليوناني القديم من خلال محاورات أفلاطون مع "جورجياس" و"فيدر"، تلك المكانة التي تؤهلها لمنافسة الفلسفة، وإبعادها عن مجال الحياة

---

[1] – غنار سكيريك – نلز غيلجي، تاريخ الفكر الغربي، ص94.

[2] – أحمد درويش، النص البلاغي في التراث العربي والأوروبي، ص23.

*– إبيميتي: أسطورة تبين موقع الإنسان من الكائنات المحاطة به، و إبيميتي هو إله أعطى للإنسان المهارات الفنية المختلفة. المرجع نفسه ص23.

[3] – المرجع نفسه، ص24.

والسياسة، "وقد تصدى سقراط لهذه النزعة التي استفحلت عن السفسطائيين"[1]، وهذا ما يدل على أن السفسطائيين قد أفادوا البلاغة لمّا جعلوها موضع الحوار والجدل بين الفلاسفة والمفكرين وذلك ما ساعد أرسطو على إرساء قواعد بناء العبارة وتنظيم أجزاء القول.

2 – أرسطو:

يعتبر أرسطو المؤسس الحقيقي للبلاغة، حيث يعزو نشأتها إلى تسياس و كوراكس الصِّقِلِّيَّين في الربع الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد. وكان هذان الشخصان بارعين في التحدث أمام العامة وماهرين في إقناع الآخرين بوجهة نظرهما. وبعد طرد الطغاة والمستبدين من سيراكوس، وإقامة نظام حكم ديمقراطي فيها، قام ملاك الأراضي التي كانت قد صودرت أيام حكم الدكتاتوريين بإجراء مرافعات قانونية لاسترداد أراضيهم وأملاكهم. ولهذا احتاج هؤلاء إلى مساعدة كوراكس وتيسياس في هذه المرافعات، وهكذا ترعرعت البلاغة في بيئة سياسية ديمقراطية في عهد بركليس، ثم نضجت مع إسقراط، ومن أبرز القضايا المستوردة من اليونانيين هي المجاز، والمجاز عند اليونانيين كما شرحه أرسطو ودلالته وضروبه المختلفة يقول: "الإجادة في المجازات معناها الإجادة في إدراك الأشياء"[2] ويقول أيضاً: "والمجاز نقل اسم يدل على شيء إلى شيء آخر و النقل إما من جنس إلى نوع أو من نوع إلى جنس، أو من نوع إلى نوع أو بحسب التمثيل"[3]، فالمجاز بهذا التحديد عند أرسطو يعني كل ما يتجاوز التعبير الحقيقي البسيط، تعبير ذو احتمالات وتأويلات مختلفة، كما تحدث أرسطو عن أنواع المجاز المختلفة كالاستعارة والألغاز والأمثال والطباق والتقابل، وقرن المحاكاة بالمجاز.

وبعد معاداة أفلاطون لبلاغة السفسطائيين، خصوصاً من خلال محاورته لجورجياس، باعتبارها بلاغة الحشود الشعبية القائمة على المصالح والأهواء، جاء أرسطو ليعيد لها مكانتها من خلال مؤلفه «الخطابة Rhétorique»، حيث يعرف الخطابة حسب الترجمة العربية القديمة بقوله: "الريطورية

[1] – محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، أفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2002م، ص14–15.

[2] – أرسطو، فن الشعر، تح: عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، 1973م، ص64.

[3] – المرجع نفسه، ص85.

قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة"[1]، ومعنى الخطابة هنا هو القدرة على التأثير باستخدام الوسائل الممكنة وذلك بحسب الأحوال أو الموضوع.

ويقسم أرسطو الخطابة إلى ثلاثة أنواع: الاستشارية والقضائية والاحتفالية، وهي كما عبر عنها "فمن الاضطرار إذاً يكون الكلام الريطوري ثلاثة أجناس: مشوري، ومشاجري، وتثبيتي"[2]، وقد استخلص أرسطو تلك الأنواع من السفسطائيين حيث يعتبرها من الأدوات الأساسية لتسيير المجتمع في المحاكم أين تلقى الخطب القضائية، وفي التجمعات الشعبية تلقى الخطب الاستشارية وفي الأولمبياد تلقى الخطب الاحتفالية، وهذه مقامات مخاطبة العامة بغية الإقناع، وبهذا حاول أرسطو الربط بين البلاغة والمؤسسات الديمقراطية الأثينية والحياة الاجتماعية.

كما أن موضوع الخطابة مجال رحب للقيم التي تحيى في كنف الأجناس الخطابية الثلاثة، فالعدل والظلم يلازمان الخطابة القضائية، والخير والشر يلازمان الخطابة الاستشارية، والجميل والقبيح يلازمان الخطابة الاحتفالية أين يكون فيها المدح والذم، وبذلك "فإن الناس جميعاً إنما يمدحون ويذمون على حسب ما هو موجود قائم وقد يستعملون الأدب أحياناً"[3]، وبالتالي أمكن إدراج الخطابة الاحتفالية ضمن الخطاب الأدبي حيث أن الجمهور غير مطلوب منه أن يصدر حكماً، والخطبة التي تضطلع عند الإغريق بالمدح والذم، بالإمكان أن تحقق ما كان يحققه شعر المدح والهجاء عند العرب.

[1] – أرسطو طاليس، الخطابة، الترجمة العربية القديمة، تح: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، لبنان، 1979م، ص9.

[2] – المرجع نفسه، ص17.

[3] – المرجع نفسه، ص17.

3 – أقسام البلاغة اليونانية:

القسم الأول: هو الابتكار (Invention)، وفي مصطلح أرسطو (Eurisis)، وهو قسم يتعلق بابتكار الموضوع والمادة الخام للنص، "ويعني به أرسطو تجميع الوسائل الضرورية أو المواد الخام التي سوف يتشكل منها المقال أو الخطبة، ومن بين هذه الوسائل تأتي وسائل الاحتجاج"[1]، إلا أن حمادي صمود يرى أن معاني هذا القسم موجودة "في كلمة "البصر بالحجة" العربية و موجودة في الشروح والتحليلات المصاحبة لكلمة (Eurisis)"[2]، والبصر بالحجة معناه الظفر بالشيء و الوقوع عليه، وهو معنى موجود في العبارة العربية.

القسم الثاني: الترتيب أو التنظيم (Disposition) وعند أرسطو (taxis)، والمقصود بهذا القسم الترتيب المنطقي للأفكار والموضوعات والمقدمات والنتائج، "وقد عبر (بوالو) صاحب كتاب «فن الشعر» عن فهمه لطريقة تنفيذ هذا العنصر ببيت شعري على طريقته في نظم قواعد، يقول:

Avant donc d'écrire, apprenez à penser

"قبل أن تكتب عليك إذن أن تتعلم كيف تفكر"[3].

القسم الثالث:الفصاحة (Elocution) وهو (Lexis) في خطابة أرسطو، ويسمي صمود هذا القسم بالعبارة وهي "اللفظ المناسب الذي به يخرج كل ما كان في الذهن والذاكرة إلى الوجود والفعل"[4]، فيستطيع الخطيب عن طريق العبارة أن يوصل رسالته إلى المخاطب ويقضي حاجته. وقد تناول هذا القسم أساليب الفصاحة وصياغة الألفاظ وتحسين العبارة وأناقة الرصف والسبك ولعل الفصاحة "تحل من الخطابة كما يقول الأقدمون محل الألوان من الرسم، وتفصيل القول في طريقة

[1] – أحمد درويش، النص البلاغي في التراث العربي الأوربي، ص26.

[2] – فريق البحث في البلاغة والحجاج، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب منوبة، تونس، ص14.

[3] – المرجع السابق، ص26.

[4] – فريق البحث في البلاغة والحجاج، أهم نظريات الحجاج، ص16.

محاولة تحقيق الفصاحة في العمل الأدبي هو المجال الواسع لعلم البلاغة بتفريعاته المختلفة، لكن هناك في المنهج الأرسطي سمات عامة للأسلوب تكسبه الفصاحة مثل الصفاء والتجديد وعدم التكلف وعدم السوقية والاتساق بين أجزائه"[1]، وبهذا فقد أحدث أرسطو تقارباً كبيراً بين الخطابة والأدب وهو ما يجعل عنصر الفصاحة من أهم الأقسام.

القسم الرابع: ويعرف هذا القسم بالإلقاء وهو الأداء الفعلي وما يصاحب ذلك من أساليب التشويق والحركات الجسدية المصاحبة للإلقاء، وقد أضاف أرسطو للمراحل الثلاث السابقة الخاصة بفن القول "مرحلة رابعة سمَّاها (Hypocrisis) وتعرف في اللاتينية بـ (Actio)"[2]، وهي عند الإغريق تدل على تقمص الشخصية في التمثيل المسرحي، "أما ابن رشد فاستعمل في مقابل المصطلح الأرسطي عبارة (الأخذ بالوجوه)"[3]، أي أن الأشياء المصاحبة للألفاظ أثناء القول أو التعبير تثير اهتمام المستمعين وتجعلهم يقبلون بوجوههم على المتكلم.

القسم الخامس: وأضاف اللاتين "مرحلة خامسة لكن لا علاقة لها بالإنتاج في الحقيقة وتتمثل في استظهار الخطيب للخطبة استعداداً لإلقائها وسمَّوا هذه المرحلة (Memoria) أي "الاستظهار"[4]، وهذا القسم متعلق بحفظ الخطبة أو النص الخطابي عن ظهر قلب وما يصاحب ذلك من مهارات التذكر والاستحضار.

هذا بالنسبة لأقسام البلاغة اليونانية، أما إذا نظرنا إلى البلاغة العربية فنجد أنها بأقسامها الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) تقع ضمن إطار القسم الثالث من بلاغة أرسطو.

[1] – أحمد درويش، النص البلاغي في التراث العربي الأوربي، ص27.
[2] – فريق البحث في البلاغة والحجاج، أهم نظريات الحجاج، ص173–174.
[3] – المرجع نفسه، ص174.
[4] – المرجع نفسه، ص174.

4 – التأثير اليوناني في البلاغة العربية:

عُرِف عنِ العرب خلال العصور الوسطى بأنهم ترجموا كمًّا هائلاً من التراث الثقافي اليوناني، وأن استفادتهم من الثقافات الأخرى مثل الفارسية والهندية واليونانية أمر ليس فيه نقاش، وإنما الجدل حول تأثير تلك الثقافات –خاصة اليونانية– في العلوم العربية المحضة، وعلى رأسها البلاغة.

لقد شكّك العديد من النقاد والبلاغيين المعاصرين في أصالة البلاغة العربية أمثال: أمين الخولي إبراهيم سلامة، رجاء عيد، شوقي ضيف، وعلى رأسهم طه حسين الذي توصل إلى نتيجة مفادها "أن أرسطو طاليس لم يكن أستاذاً للعرب في الفلسفة فحسب، بل كان شيخهم وأستاذهم في البيان كذلك"[1]، وهذه النتيجة قد توصل إليها بعد أن نال من عدة بلاغيين، "فهو ينال من الجاحظ فيما كتب عن البلاغة العربية مقارناً بين العربية وغيرها من اللغات، ينال منه بخاصة لأنه نال من أرسطو طاليس، فادعى أنه لم يكن خطيباً وأن الإغريق كانت لهم الزعامة في الفلسفة فحسب، وأن البلاغة العربية وحدها "مرتجلة، طبيعية، كأنها الماء يتفجر من ينبوعه"، وأن غيرها مما عندها من الأمم ليس كذلك"[2]، ورأي الجاحظ هذا ليس عصبية بعيدة عن الحق، وإنما تعبير عن أصالة البلاغة العربية كما يرى فضل عباس، وبالنظر للمجهود البلاغي للجاحظ يتضح أنه تحدث عن خمسة أقسام رئيسة، هي نفسها التي عرفت في الخطابة اليونانية، "وليس التقريب بين وجهة اليونان في التقسيم ووجهة المؤلف

دليلاً قاطعاً على الأخذ والتأثر"[3]، كما أن مصادر الجاحظ في البحث البلاغي كانت عربية إلى حد كبير، وما أورده عن البلاغة الأجنبية كان من أجل المقارنة فقط، "وبالجملة فمقاييس الجاحظ رغم بعض النقول عن اليونان والفرس وغيرهم تبدو لنا مستمدة من نصوص يمكن اعتبارها حصيلة الأنواع الأدبية في الثقافة العربية الإسلامية ومعتمد كل نشاط نقدي وبلاغي بعده"[4]، ولكن القول بأن

---

[1] – فضل حسن عباس، البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية، دار الفرقان، ط2، 1999م، ص174.

[2] – المرجع نفسه، ص176.

[3] – حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص259.

[4] – المرجع نفسه، ص263.

البلاغة العربية هي وحدها التي بلغت مكانة أفضل على سائر الأمم، أمر ينفي ما كانت عليه بلاغة اليونانيين – وخاصة السفسطائيين– من رقي وازدهار.

ومن القائلين بتأثير الفلسفة اليونانية في البلاغة العربية شوقي ضيف في كتابه «النقد»، ما قاله عن عبد القاهر صاحب نظرية النظم حين جعله متمحلاً، يحمِّل اللغة ما لا تطيق، وكل ما ذكره عبارة عن تفلسف حيث يقول: "وأخذ عبد القاهر بعد ذلك يطبق نظريته، وأظهر في تطبيقها براعة نادرة، وهي براعة عقلية، أو قل إنها براعة فلسفية، فكثير مما يقوله ليس أكثر من تمحلات فكرية يظهر فيها التكلف الشديد، ومع ذلك لا يزال بك حتى تؤمن بما يقول، مع أنه لا يقول إلا تأويلات فلسفية، لعل اللغة أبعد ما تكون عن أن تحتملها"[1]، وما أراده شوقي ضيف بهذا القول هو أن عبد القاهر في تطبيقه لنظرية النظم كوَّن فلسفة لغوية لا فلسفة جمالية، أي أنه يحمل اللغة ما لا تحتمل "فكل ما ذكره نحو معقد متفلسف يحمل اللغة ما لا تطيق"[2] ، ويتساءل فضل عباس: "هل فن القول– كما يُسمُّونه– يكون بتنميق العبارة فحسب، وزخرفة الألفاظ ؟! إن مشاهير الأدباء شرقيين وغربيين لا يختلفون أبداً في أن اللفظ وحده لا يكون جمالاً، وأن الفلسفة الجمالية هي التي اجتمعت فيها الرقّة والدقّة، رقة اللفظ ودقة المعنى"[3]، وبهذا لا يكون الجمال باللفظ وحده، وإنما يكون بارتباطه مع المعنى، وذلك ما يوافق نظرية النظم المكتملة عند عبد القاهر.

ومن خلال آراء النقاد والبلاغيين، من المشككين في أصالة البلاغة العربية والمدافعين عنها يمكن القول بأن البلاغة اليونانية كان لها تأثير ولكن لم يكن ذا بال، كما يمكننا الاستشهاد بقول الدكتور مُحَمَّد عابد الجابري: "إذا كانت الفلسفة هي "معجزة" اليونان فإن علوم العربية هي "معجزة" العرب "[4]، وبهذا يكون لكل أمة ما يميزها عن غيرها.

---

[1] – شوقي ضيف، النقد، دار المعارف، القاهرة، ط5، ص106.

[2] – فضل حسن عباس، البلاغة المفترى عليها، ص279.

[3] – المرجع نفسه، ص283.

[4] – مُحَمَّد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط10، 2009م، ص80.

المبحث الثاني: العصر الجاهلي والإسلامي

أ – العصر الجاهلي:

نستطيع القول بأن العرب في العصر الجاهلي لم تكن تفخر بالفصاحة فحسب، بل لا يتسيّد الفرد قومه، ولا يصبح من الكبراء والوجهاء حتى تكتمل له عدة خصال مثل البيان والتواضع والحلم والصبر والسخاء، كما عرف عندهم أن البيان شرط من شروط السيادة عند العرب، وقد وصف الله تعالى ذلك في عدة مواضع مثل: ﴿**وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ**﴾ ،﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبْكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ وقوله تعالى ﴿**مَاضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونْ**﴾. ويروى أن الوليد بن المغيرة أحد خصوم الرسول الألدَّاء استمع إليه وهو يتلو بعض آي القرآن، فقال:{والله لقد سمعت من مُحَمَّد كلاماً، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمُثمِر، وإن أسفله لمُغدِق}[1]. هذا فيه دلالة على ما كان لهم من الفصاحة وحسن الكلام لذلك تحداهم القرآن الكريم بأن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، هاته القوة الخطابية البلاغية تظهر في خطبهم وقصائدهم الطوال، وذلك جليٌ في لغة العرب في العصر الجاهلي، وهي لغة الإيجاز، يقول بعض الحكماء: "البلاغة علم كثير في قول يسير"[2].

تميّزت القصائد التي أُلِّفت في العصر الجاهلي باعتناء العرب ووقوفهم على انتقاء الألفاظ والمعاني والصور فقصائدهم مملوءة بالتشبيهات والاستعارات والكنايات والطباق والمقابلة والجناس. وعناية العرب بقرض الشعر في هذه المرحلة يعد من الفصاحة والقدرة على حكاية الكلام، كما يروى أن زهيراً بن أبي سلمى كان يدقق وينقح قصائده، لأن النقاد لن يتركوا القصيدة دون غربلة، فتمر السنة قبل أن يشرع في قصيدة أخرى، "ولا نبعد كثيراً إذا زعمنا أن العرب في الجاهلية عرفوا الفن البياني، ولعل قول زهير:

---

[1] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط 9، ص 9، نقلا عن تفسير الزمخشري لسورة المدثر.

[2] – عبد القادر حسين، فن البلاغة، عالم الكتب، بيروت، ط 2، 1984م، ص 14، نقلا عن خزانة الأدب للبغدادي 95/3.

مَـا أَرَانَـا نَقُـولُ إِلَّا مُـعَـاراً أَوْ مُـعَـاداً مِنْ لَـفْظِنَـا مَـكْـرُورَا

أوضح دليلٍ على أن العرب في الجاهلية عرفوا الفن البياني"[1]، وما يلاحظ فيما يقوله زهير وغيره تكرار للمعاني المعروفة بألفاظ مختلفة.

والناظر في شعر الجاهليين يلحظ أنهم مطبوعون على السليقة، هذه المدرسة التي لم تكتف بالإحساس بل تعدت ذلك إلى الفطرة والمزاولة والممارسة، والدليل على هذا كله هو أن العرب في جميع أزمنتهم اعتنوا بفصاحة اللفظ وجزالته، ورقة الأسلوب، وحسن اختيار الألفاظ، والموافقة بين كلمة وكلمة أخرى، فهذا ما يجعل الوقع أقوى على السامع، "وكان للغة قريش أوفى نصيب في اللغة التي اختارها العرب لغة لأسواقهم الأدبية ولغتهم الموحدة"[2].

كان للعرب أسواق كثيرة في "نجد والحجاز واليمن وحضرموت، وأشهر تلك الأسواق ثلاثة كانوا يجتمعن فيها في أوقات صعبة وهي سوق عكاظ وهي أشهرها، وكانت بين نخلة والطائف شرقي مكة، وكانت تستمر عشرين يوماً من أول ذي القعدة إلى العشرين منه"[3]، ولم تقتصر على التجارة وحدها بل كانت سوقاً للشعر والخطابة يتعاكظ فيه العرب أي يتفاخرون ويتناشدون، وقد استمع فيها الرسول ﷺ إلى قس بن ساعدة وهو يخطب في الناس بسوق مُجنة، وكانت على مقربة من عكاظ، وكانت تعقد في العشرة الأخيرة من ذي القعدة و "سوق ذي المجاز كانت تعقد في أوائل ذي الحجة وتستمر إلى نهاية الحج وهي على مقربة من ينبع"[4].

[1] – عبد القادر حسين، فن البلاغة، ص15–16.

[2] – مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، دار الفكر، دط، دت، ص26.

[3] – سامي أبو زيد – منذر كفافي، الأدب الجاهلي، دار المسيرة، عمان، ط1، 2011م، ص32.

[4] – المرجع نفسه، ص32.

وصارت هاته الأسواق محفلاً للمساجلات الشعرية وإلقاء القصائد، ومن هنا أصبح الشاعر صاحب رسالة، وأخذ مكانة رفيعة وسط القبيلة والعرب، وإذا ظهر فيها شاعر وأصبحت له حظوة أتت إليه القبائل مُهنِّئةً، وأقيمت له الأفراح.

قال صاحب الأغاني: "كان يضرب للنابغة قبة من أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها وحدث ذات مرة أن أنشده الأعشى أبو بصير، ثم حسان بن ثابت ثم أنشده الشعراء ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الشريد:

وَإِنَّ صَـخْراً لَـتَـأْتَـمُّ الـهُدَاةُ بِـهِ كَـأَنَّـهُ عَـلَـمٌ فـي رَأْسِـهِ نَـارُ

فقال والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت إِنَّكِ أشعر الجن والإنس فقال حسان والله لأنا أشعر منك ومن أبيك، فقال له النابغة يابن أخي أنت لا تحسن أن تقول:

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ قُلْتَ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

خَطَاطِيفٌ حِجْنٌ فِي حِبَالٍ مَتِينةٍ تَـمُـدُّ بِـهَـا أَيْـدٍ إِلَـيْـكَ نَـوَازِعُ

فخنس حسان لقوله"[1]، ولما غضب حسان قال له حيث تقول ماذا؟ قال: حيث أقول:

لَنَا الجَفَنَاتُ الغُـرُّ يَلْمَعنَ بِالضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَـا

وَلَدْنَا بَنِي العَنْقَاءِ وَابْنَيْ مُحَرِّقٍ فَأَكْرِمْ بِنَا خَالاً وَأَكْرِمْ بِنَا ابْنَمَا

فقال له النابغة: إنك لشاعر لولا أنك قَلَّلْتَ عدد جِفانك وفخرتَ بمن ولدتَ ولم تفخر بمن ولدك"[2].

[1] – الأصفهاني، الأغاني، مكتبة إحياء التراث العربي، لبنان، بيروت، ط1، 1994م، ج11، ص7.

[2] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص11.

لقد تميز النقد الجاهلي بصفة عامة بأنه سليقي فطري، مبعثه العاطفة والذوق، وليس نقداً علمياً نابعاً من العقل، ومن هنا "فملكة النقد عند الجاهليين هي الذوق الفني المحض أما الفكر وما ينبعث عنه من التحليل والاستنباط فذلك شيء لا نعرفه عندهم وبعيد كل البعد عن روح الجاهلي وعن طبيعة العصر الجاهلي"[1]، كما أن النقد في الجاهلية كان موجهاً إلى جمهور يعرف من الفصاحة والبلاغة ما يعرف، حيث يأخذ الشاعر والخطيب في تنميق خطبته وقصيدته، ينظر فيها، وذلك ما كان يحصل لزهير وقصائده الحولية وكذلك الحطيئة إذ يقول: "خير الشعر الحولي المنقح"[2]، ولعل في هذا التنقيح ما يعطي ثمرة يانعة للقارئ إذ يتم الاستغناء عن الأبيات التي لا تستجيب لضوابط معينة ولا ترقى للفطرة السليمة، وبالتالي يفسد المعنى.

إن الملاحظات التي كان الشعراء يسوقونها "لا ريب في أنها أصل الملاحظات البيانية في بلاغتنا العربية"[3]، وذلك لما في شعر الجاهليين من استعارة وتشبيه وجناس ومقابلة، يدل على اعتنائهم بحسن الكلام وفنون التعبير البليغ.

ب- صدر الإسلام:

بعد بزوغ فجر الإسلام واتساع رقعته وكثرة الوافدين إليه، كانت الحاجة ماسة إلى انتشار البلاغة وعلو كعبها لأسباب سياسية وعقائدية، فالمسلمون يدافعون عن دينهم الجديد بكل قوة وعن رسولهم عليه الصلاة والسلام وصدق نبوته، إذ ننوه بأن الدعوة الإسلامية قامت بالحجة والبيان،كما قامت بالحرب والسيف فالمسلمون يمدحون رسولهم، ويهجون المشركين، والمشركون يردون عليهم بدورهم، وكل فريق يركز على البراعة الفنية والمقدرة البلاغية لاستمالة المخاطبين.

[1] – عبد القادر حسين، فن البلاغة، ص17، نقلا عن تاريخ النقد الأدبي عند العرب، طه إبراهيم، ص 18.

[2] – المرجع نفسه، ص18.

[3] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص13.

لما سمع العرب آيات القرآن العظيم انبهروا بما فيه من أساليب بلاغية، وهم أهل اللغة والبراعة والبلاغة وقالوا بأنه ما هو بشعر ولا نثر، ولا سجع كهان، وإنما هو سحر ساحر، وقد أدرك الوليد بن المغيرة بأن بلاغة القرآن الكريم فاقت بلاغة البشر حتى قال عنه بأنه سحر يؤثر.

لا شك أن القرآن الكريم كان له تأثير عظيم في نشأة البلاغة وتطويرها، فقد عكف العلماء على دراسته وبيان أسراره في إعجازه، واتخذوه مداراً للدرس البلاغي، وجعلوا آياته شواهد على أبواب البلاغة، واعتبروها مثالاً يحتذى به في جمال النظم ودقته، وكان النبي ﷺ أفصح العرب، كما كان شديد الاهتمام والحرص بالشعر والشعراء، ومن ذلك قوله لحسان ﷺ: "قل وروح القدس يؤيدك، وقوله لأبي ليلى: لا فض فوك"[1].

وفي عهد الخلفاء الراشدين حافظت اللغة على نقائها وسلامتها، "كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي خطباء مفوهين، وكانوا يستضيئون في خطابتهم بخطابة الرسول الكريم وآي الذكر الحكيم"[2]. وما يدل على خطابة الخلفاء الراشدين وبلاغتهم في القول، ما يروى عن أبي بكر ﷺ من أنه عرض لرجل معه ثوب فقال له: أتبيع الثوب؟ فأجابه: لا، عافاك الله. وهنا ظاهر اللفظ عند الفصل بين النفي والدعاء يوحي بأن النفي مسلط على الدعاء وذلك ما يؤذي أبا بكر، فقال له: "لقد علمتم لو كنتم تعلمون، قل: لا وعافاك الله"[3].

ويحكي الرواة عن بلاغة عمر ﷺ أنه كان يستطيع أن يخرج الضاد من أي شدقيه* شاء، كما كانت له مساهمات نقدية ضمّنها النقاد والبلاغيون على حد سواء في مؤلفاتهم، أما علي ﷺ فقد اشتهر بالفصاحة والبيان.

[1] – الرافعي، إعجاز القرآن الكريم وبلاغته النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، ص256.

[2] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص14.

[3] – الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط7، 1998م، ج1، ص261.

* – شدقيه:الشِّدق: الجمع أشداق وشدوق، زاوية الفم مما تحت الخدين.

وما نلاحظه هو أن بلاغة العرب في صدر الإسلام لا تختلف عن بلاغة العصر الجاهلي، حيث بقيت أساليبهم على الطبع والسليقة والدربة والتثقيف، كما عرف العرب في هذا العصر الإيجاز والإطناب والمساواة في القرآن، مثلما عرفوا السجع وغلب على كلامهم، والرسول عليه الصلاة والسلام لم ينه عن السجع على الإطلاق، بل نهى عن الذي يتشبه بقول سجع الكهان.

ج- عصر بني أمية:

شهد العصر الأموي ازدهاراً عظيماً لفن الخطابة بمختلف أنواعها من سياسية ووعظية وحفلية أشهرهم في السياسة من ولاة بني أمية، الحجاج بن يوسف الثقفي وزياد بن أبيه، وفي الحجاج يقول مالك بن دينار: "ربما سمعت الحجاج يخطب، يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه وأنه صادق لبيانه وحسن تخلصه بالحجج"[1]، وهذه شهادة على اقتدار الحجاج وبراعته في حسن الكلام وقوة الإقناع.

ومن خطباء المحافل صحار العبدي الذي راع معاوية بخطابته "فسأله: ما تعدّون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز فقال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحار: أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ"[2] وهذا أحد التعريفات للبلاغة الذي ضمّنه الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين".

أما خطباء الوعظ فقد اشتهر فيهم غيلان الدمشقي والحسن البصري وواصل بن عطاء، فبلغوا ببيانهم أعلى المراتب، حتى قال الجاحظ: "إن أدباء العصر العباسي كانوا يتحفظون كلام الحسن وغيلان، حتى يبلغوا ما يريدون من المهارة البيانية"[3].

[1] – الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص394.
[2] – المرجع نفسه، ج1، ص96.
[3] – المرجع نفسه، ج1، ص295.

لقد كثرت الملاحظات البيانية في عصر بني أمية وذلك لأسباب عدة منها تحضر العرب واستقرارهم في المدن والأمصار، وازدهرت الحياة العقلية بسبب ظهور الأحزاب السياسية، فكان هناك

الأمويون والخوارج والشيعة والزبيريون، والفرق الدينية من المرجئة والجبرية والقدرية والمعتزلة، "فكان طبيعياً أن ينمو النظر في بلاغة الكلام وأن تكثر الملاحظات المتصلة بحسن البيان، لا في مجال الخطابة والخطباء فحسب، بل أيضاً في مجال الشعر والشعراء"[1].

كما اشتد التنافس بين شعراء المديح والهجاء خاصة شعراء النقائض جرير والفرزدق والأخطل فبرعوا في مدح الخلفاء والولاة لينالوا الجوائز الضخمة، "وقامت في هذا العصر سوق المِربَد في البصرة وسوق الكناسة في الكوفة مقام سوق عكاظ في الجاهلية"[2]، لينشد فيهما الشعراء أحسن ما صاغوه من قصائدهم، وأجود ما جادت به قرائحهم.

يروى عن جرير أنه سمع عمر بن لجأ التيمي "ينشد في أرجوزة له يصف إبله:

قَدْ وَرَدَتْ قَبْلَ إِنَى ضَحَائِهَا وَتَفْرِسُ الحَيَّاتِ فِي خِرْشَائِهَا*

جَرَّ العَجُوزِ الثَّنْيَ مِنْ رِدَائِهَا

فتعرض له يقول: كان أولى بك أن تقول: «جَرَّ العروس» لا جر العجوز التي تتساقط خوراً وضعفاً واستشاط عمر غضباً ، فهجاه، واحتدم بينهما الهجاء"[3]. وملاحظة جرير تدل على السعي لاختيار أحسن الألفاظ ووضعها في سياقاتها المناسبة، ليزيد الكلام بلاغةً وفصاحة.

[1] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص15 – 16.

[2] – المرجع نفسه، ص16.

*– إن: وقت، من أنى يأنى حان وقته. ضحاء الإبل: مرعاها في الضحى. تفرس: تحطم وتدق. الخرشاء: جلد الحيات.

[3] – الأصفهاني، الأغاني، ج8، ص70.

كثرت الملاحظات البلاغية في العصر الجاهلي والعصر الإسلامي، فكان العرب يكرهون التكلف والإغراب في اللفظ ولا يحبون الإسهاب في الكلام وهو صفة ذم، أما الإطناب فصفة مدح في البلاغة، وكانت أقوال الخلفاء والصحابة رضوان الله عليهم تعتبر من الشواهد لدى البلاغيين في البديع والمعاني، من هنا كان اعتناء النقاد والبلاغيين بالملاحظات البيانية، وعليه نستطيع القول بأن الأصول الأولى للبلاغة العربية بدأت ملامحها تتضح في بيئة هؤلاء العرب الخُلَّص.

المبحث الثالث: التأليف البلاغي التطور والازدهار

لقد تميز العصر العباسي بتطور الملاحظات البلاغية واتساعها، وذلك مردُّه إلى تطور فنَّي الشعر والنثر بسبب ازدهار الحياة العقلية والحضارية، الذي فرضته حركة الترجمة، حيث ترجم ابن المقفع عن الفارسية كتبًا كثيرة منها كليلة ودمنة وأجزاءاً من منطق أرسطو طاليس، وكان من آثار ذلك ظهور طائفتين من الشعراء، إحداهما يقترب شعرها من العامة، وكان منهم أبو العتاهية، وأخرى تهتم بالصور البيانية والمحسنات البديعية من أمثال مسلم بن الوليد .

كما يعود الفضل في تطور البلاغة "إلى نشوء طائفتين من المعلمين، عنيت إحداهما باللغة والشعر وعنيت الأخرى بالخطابة والمناظرة وإحكام الأدلة ودقة التعبير وروعته"[1]، فالطائفة الأولى هي طائفة اللغويين المحافظة، والتي كانت تهتم برواية الأدب وأصول اللغة والنحو، كما اهتمت بالشعر الجاهلي والإسلامي من أجل وضع القواعد اللغوية، أما الطائفة الثانية فهي طائفة علماء الكلام وفي طليعتهم المعتزلة، التي اهتمت بفن الخطابة والمناظرة ومسائل البيان والبلاغة.

وإذا حاولنا تتبع مسار التطور البلاغي وازدهاره في تضاعيف الكتب، يمكننا أن نقسم التأليف في مجال البلاغة إلى ثلاثة مراحل:

- مرحلة الإشارات البلاغية.
- مرحلة الدراسات المنهجية.
- مرحلة ازدهار البلاغة.

[1] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص19.

1 – مرحلة الإشارات البلاغية:

عرفت البلاغة العربية في نشأتها دراسات العديد من العلماء والباحثين، الذين أسهموا في وضع البذور الأولى للدرس البلاغي، وذلك من خلال بعض التأليفات التي يمكننا تقسيم أصحابها إلى الطوائف التالية:

1 – 1 – طائفة اهتمت بدراسة القرآن الكريم:

والمقصود هنا بهذه الطائفة هو مجموعة من اللغويين في الأساس، ولكن إشاراتهم البلاغية تظهر في المؤلفات التي تدرس جوانباً في القرآن الكريم.

1 – 1 – 1 – مجاز القرآن لأبي عبيدة (ت 208هـ):

يعتبر أبو عبيدة أول من تكلم في المجاز بالمعنى البلاغي والاصطلاحي، وإن كان المراد بالمجاز عنده هو "الدلالة الدقيقة لصيغ التعبير القرآنية المختلفة"[1]، أي أن المجاز هو بيان الأساليب التعبيرية في القرآن الكريم، وقد ذكر ابن تيمية في كتابه «الإيمان» أن أبا عبيدة لم يتكلم عن المجاز الذي هو قسيم الحقيقة وإنما "كلمة المجاز عنده مرادفة لكلمة التفسير أو التأويل"[2]، ولذلك كان مؤلفه في تفسير آي القرآن وتأويلها، "ومع هذا فقد وردت في كتابه «مجاز القرآن» إشارات إلى بعض الأساليب البيانية كالتشبيه والاستعارة والكناية، وبعض خصائص التعبير النحوية التي لها دلالات معنوية من مثل الذكر والحذف والالتفات والتقديم والتأخير"[3]، وتلك الإشارات بمثابة اللبنات الأولى التي وضعها أبو عبيدة في صرح البلاغة العربية، والمصباح الهادي والنور المضيء للبلاغيين الذين أتوا من بعده.

---

[1] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص29.

[2] – مازن مبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص39.

[3] – عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم البيان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1985م، ص9.

1-1-2- معاني القرآن للفراء (ت 207هـ):

عاصر الفراء أبا عبيدة، ونهج نهجه في تأليف كتابه «معاني القرآن» في الأسلوب القرآني والملاحظ هو الطابع النحوي الغالب على الكتاب، كون الفراء أحد أئمة النحو الكوفيين في عصره.

وكان للفراء إسهامه هو الآخر في التأسيس لمباحث البيان، إذ عُني في كتابه بتفسير آي القرآن الكريم، "وتحدث فيه عن التقديم في الألفاظ والتأخير والإيجاز والإطناب والمعاني التي تخرج إليها بعض الأدوات كأداة الاستفهام، كما تحدث أو قل أشار إلى بعض الصور البيانية من مثل التشبيه والكناية والاستعارة"[1]، إلا أن تلك الملحوظات البلاغية كان يغلب عليها طابع الإعراب والسبب في ذلك يعود إلى ما قلناه سابقاً بأن الفراء كان إماماً نحوياً وعالماً باللغة.

1 – 1 – 3 – تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ت 276هـ):

ألَّف ابن قتيبة كتابه «تأويل مشكل القرآن» للرد على الملاحدة وأشباههم الذين طعنوا في القرآن الكريم، وقد أشار إلى العديد من الصور البيانية، في قوله مثلاً: "وللعرب المجازات في الكلام ومعناها طرق القول ومآخذه، ففيها الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم، والتأخير، والحذف والتكرار، والإخفاء والإظهار، والتعريض، والإفصاح، والكناية، والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص"[2]، وقد عدَّد ابن قتيبة هذه الفنون لورودها في القرآن الكريم ورداً على الطاعنين بما خفي عليهم، مما فيه من أساليب القول وفنون التعبير، "فأراد أن يبين أن القرآن

[1] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص29.

[2] – ينظر: بدوي طبانة، البيان العربي، دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط2، 1958م ص20.

نزل بألفاظ العرب ومعانيها ومذاهبها في الإيجاز والاختصار، والإطالة، والتوكيد، والإشارة إلى الشيء وإغماض بعض المعاني"[1]، وهذه طريقة العرب في التعبير والاستعمال.

وما ميَّز ابن قتيبة عن سابقه أبي عبيدة هو حسن التبويب وجمع المعلومات بعضها إلى بعض وإضافته لبعض الإشارات والتفاصيل "كأن يتوسع في الحديث عن الكناية أو يعرض للمبالغة"[2].

1 – 2 – طائفة المتكلمين:

وهي طائفة كانت تُعنى بتعليم الشباب فنون الخطابة والمناظرة لتأييد آرائهم وإفحام الخصوم ونذكر منهم: بشر بن المعتمر والجاحظ.

1 – 2 – 1 – صحيفة بشر بن المعتمر (ت 203هـ):

لقد كانت أول محاولة في سبيل التأليف البياني هي لبشر بن المعتمر، أحد أئمة الكلام من المعتزلة "والذي كتب صحيفة تشبه أن تكون مقالة في موضوع البيان"[3]، والتي أثارت عدة مسائل تتصل بالبيان وقد رواها الجاحظ كاملة في كتابه «البيان والتبيين».

وكمثال عن رؤية بشر البلاغية "نجد فكرة الطبقات البلاغية تتمثل في أنه (ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات)"[4]، وهذا ما يتناسب مع التعريف المشهور للبلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال، والذي يتوافق مع الفكرة اليونانية التي تدعو إلى الملاءمة بين الكلام وأحوال المُخَاطبين ونفسياتهم.

---

[1] – بدوي طبانة، البيان العربي، ص20.

[2] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص60.

[3] – المرجع السابق، ص 41–42.

[4] – عماد حسن مرزوق، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم عند المعتزلة، مكتبة بستان المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط1 2005 م، ص14–15.

1 – 2 – 2 – البيان والتبيين والحيوان للجاحظ (ت 255هـ):

إن من أبرز علماء المعتزلة الذين كان لهم دور بارز في تأسيس قواعد البلاغة العربية أبو عثمان عمرو بن بحر، المشهور بالجاحظ، والذي ألَّف «البيان والتبيين» "في أربعة مجلدات كبار جامعاً فيه ملاحظات العرب البيانية وبعض ملاحظات الأجانب، وسجل كثيراً من ملاحظات معاصريه وخاصة المعتزلة"[1] الذين يروا بأن البلاغة تكون على طبقات، وهي فكرة يشترك فيها الجاحظ مع بشر بن المعتمر فيقول:" وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات"[2]، حيث أخذ يطبقها على البدو في كلامهم الوحشي وغريب ألفاظهم، مع مراعاة المعنى والمقام وأحوال المستمعين النفسية.

حفظ لنا كتاب البيان والتبيين قدرًا كبيراً من الملاحظات البلاغية، كان مصدرها التقاليد العربية وثقافات الأمم الأخرى، "ويتضح ذلك حين نجد الجاحظ المعتزلي يورد في كتابه البيان والتبيين تعاريف اليونان والفرس والهند للبلاغة"[3]، إلا أنها آراء قليلة للأعاجم، أوردها الجاحظ للموازنة بين بلاغة العرب وغيرهم من الأمم الأخرى، محاولاً بذلك التقعيد ووضع قوانين للبلاغة العربية.

وكانت للجاحظ آراء وملاحظات بلاغية كثيرة "ولا سيما ما يتصل بالتشبيهات والاستعارات والمجازات التي هي موضوع علم البيان"[4]، أكثرها مبثوثة في كتاب الحيوان، كما أورد الجاحظ مصطلحات بلاغية لم يسبقه أحد في التسمية، منها: إصابة المقدار، وسماه البلاغيون بعده "الاحتراس"، والهزل يراد به الجد، الاعتراض والتعريض، الاستعارة والكناية[5]، وأما ما تعلق بالبديع

[1] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص46.
[2] – الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص144.
[3] – عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص9.
[4] – المرجع نفسه، ص20.
[5] – ينظر: شوقي ضيف، بلاغة تطور وتاريخ، ص54.

فيرى الجاحظ أنه "مقصورٌ على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأَرْبَتْ على كل لسان"[1] وحكمه هذا ناتج عن إكثار معاصريه من فنون البديع، فذكر نماذج من الشعراء أمثال الراعي وبشار والعتابي، وإن كان بعضهم قد سبقه.

وبهذا كله فليس من المبالغة إذا قلنا إن الجاحظ يعد "مؤسس البلاغة العربية"[2]، لأنه قد أفرد لها في كتابه "البيان والتبيين" ونثر فيه ملاحظاته البلاغية وملاحظات معاصريه، كما سجل في كتابه "الحيوان" تحليلات لبعض الصور البيانية.

1 – 3 – طائفة اللغويين:

وهي طائفة كانت تحترف تلقين اللغة ومقاييسها في الاشتقاق والإعراب، وتعليم رواية الشعر والبحث في أساليبه من الناحية اللغوية والنحوية، ونذكر منهم: سيبويه والمبرد وثعلب.

1 – 3 – 1 – الكتاب لسيبويه (ت 180هـ):

نجد من اللغويين الذين كان لهم إسهام في نشأة البلاغة العربية، العلَّامة النحوي سيبويه من خلال مؤلفه «الكتاب»، وهو ليس كتاب نحو فقط، وإنما كتاب في علوم العربية، من نحو وصرف وبلاغة وعروض وعلوم أخرى.

يحوي الكتاب "إشارات كثيرة مما دخل فيما بعد تحت اسم البلاغة"[3]، فكان جهد سيبويه حجر الأساس في بناء البلاغة العربية، بما ذكره من موضوعات تدخل في علم المعاني كالحذف والزيادة والذكر والإضمار، والتقديم والتأخير، والاستفهام والقصر، وفي البيان عرض للتشبيه، والاستعارة

[1] – الجاحظ، البيان والتبيين، ج4، ص55.
[2] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص58.
[3] – مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص50.

بالكناية والاستعارة في الحروف، أما البديع فقد تناول فيه لونين فقط هما تأكيد المدح بما يشبه الذم والتجريد[1].

وتلك المسائل البلاغية التي طرقها سيبويه أضحت تشكل كثيراً من أبواب البلاغة، "ولذلك فإن كثيراً من العلماء الذين يعتد بهم في تاريخ البلاغة قد اغترف من هذا البحر الزاخر دون أن ينضب له معين"[2] كعبد القاهر وابن المعتز وأبي هلال العسكري.

1 – 3 – 2 – الكامل للمبرد (ت 285هـ):

من أشهر مؤلفات العالم اللغوي المبرد كتابه «الكامل في اللغة والأدب»، "وهو على الرغم مما يدل عليه اسمه، غير مقصور على اللغة والأدب، وإنما تناول كثيراً من المسائل البلاغية"[3]، كالإيجاز والإطناب والالتفات، وذلك من خلال عرضه لنماذج أدبية عديدة في الشعر والنثر.

كما تطرق المبرد "لبعض موضوعات البيان مثل المجاز والاستعارة والكناية والتشبيه الذي توسع في بحثه وقسمه إلى أربعة أقسام: تشبيه مفرط، وتشبيه مصيب، وتشبيه مقارب، وتشبيه بعيد"[4]، ولعل هذا التفصيل في حديثه عن التشبيه لم يسبق إليه أحد قبله، وهو أبرز مجهود له فيما يتعلق بالبلاغة العربية.

1 – 3 – 3 – قواعد الشعر لثعلب (ت 291هـ):

أطلق ثعلب على كتيبه الصغير «قواعد الشعر» وهي أربعة: أمر ونهي وخبر واستخبار، وتحدث عن المديح والهجاء والرثاء، وتطرق للتشبيه والكناية والاستعارة، وذكر الإفراط والغلو في المعنى، كما

[1] – ينظر: عبد القادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001م، ص56.
[2] – عبد القادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة، ص57.
[3] – مازن مبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص61.
[4] – عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص12.

سمى الطباق مجاورة الأضداد وأطلق على الجناس اسم المطابق[1]، وهي إشارات مفيدة في تاريخ البلاغة خاصة ما كان منها على شكل تعريفات وتحديدات.

لقد أسهمت بيئات مختلفة منذ أوائل العصر العباسي في تسجيل الملاحظات البلاغية، أولها طائفة اللغويين التي كانت لها مباحث لغوية وقرآنية تتخللها إشارات بيانية، وطائفة المتكلمين وعلى رأسهم المعتزلة التي كانت أكثر البيئات إسهاماً في نمو الإشارات البلاغية.

ويمكننا تلخيص السمات والخصائص العامة التي ميزت مرحلة الإشارات البلاغية في النقاط التالية:

أ – عدم التبويب العلمي، والذي برز أكثر في مؤلفات الجاحظ، "فعلى الرغم من أن كتابيه الكبيرين «البيان والتبيين» و «الحيوان» من أهم المؤلفات البلاغية في تلك المرحلة – بل لعلهما أهمها على الإطلاق – فإن افتقار الكتابين إلى التبويب العلمي الدقيق يجعل الإفادة الكاملة منهما على قدر كبير من الصعوبة والعسر"[2]، وذلك ما يجعل القارئ يبذل جهداً كبيراً لاستخلاص الآراء المبعثرة فيهما.

ب – اضطراب مدلول المصطلحات، حيث استخدم المؤلفون عدة مصطلحات بلاغية مثل البلاغة والفصاحة، "وأصبح البلاغيون لا يفرقون بينهما في المرحلة الأولى من التأليف، فالجاحظ لم يضع حداً واضحاً بينهما وإنما أجراهما بمعنى واحد في مواضع كثيرة من كتابه البيان والتبيين "[3] وهذا مثال عن اضطراب في تحديد المصطلحات البلاغية.

[1] – ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص61.

[2] – علي عشري زايد، البلاغة العربية تاريخها مصادرها مناهجها، مكتبة الشباب، القاهرة، 1982م، ص35.

[3] – أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1987م، ج3، ص110.

ج – اختلاط قضايا البلاغة بالعلوم الأخرى، والتي كان أبرزها "مجموعة العلوم القرآنية ومجموعة العلوم اللغوية ومجموعة العلوم الأدبية"[1] وذلك ما نجده في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة و«البيان والتبيين» للجاحظ.

وما يمكننا قوله عن مرحلة التأليف الأولى للبلاغة، هو أنها أسهمت – من خلال المؤلفات القرآنية واللغوية والأدبية – في نمو البلاغة وتطورها، ومهدت لمرحلة الدراسات المنهجية التي مثلت البداية الفعلية للتأليف البلاغي.

2 – مرحلة الدراسات المنهجية:

يعود الفضل في تطور الدراسات البلاغية إلى الطوائف الفكرية والدينية، من لغويين ومتكلمين وفلاسفة ومتأدبين، وعلى هذا الأساس سنقوم بتقسيم الجهود البلاغية في مرحلة الدراسات المنهجية إلى بيئات كما يلي:

2 – 1 – بيئة النقاد البلاغيين:

2 – 1 – 1 – كتاب البديع لابن المعتز (ت 296هـ):

يعتبر «كتاب البديع» "أول ما استقرت فيه صياغة نظرية لبعض الفنون البلاغية"[2] كالاستعارة والمطابقة والتجنيس، وقد صرح ابن المعتز بسبقه إلى التأليف البلاغي حيث يقول: "وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد"[3]، أي أنه كان السَّبَّاق في جمع فنون البديع في كتاب واحد، والتي أصبحت متفرقة بعد انقسام البلاغة إلى ثلاثة علوم (البيان والمعاني والبديع).

---

[1] – علي عشري زايد، البلاغة العربية، ص45.

[2] – مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص68.

[3] – عبد الله ابن المعتز، كتاب البديع، شرح وتحقيق: عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1 2012م، ص72.

كان النقاد القدامى ينقدون على أساس تتبع الأخطاء اللغوية والنحوية، "أما ابن المعتز فقد أرسى للنقد جانباً آخر، جانباً يقوم على تمييز الأسلوب الأدبي بما فيه من فنون البديع"[1]، حيث جعل من تلك الصور البديعية عاملاً من عوامل المفاضلة بين الأدباء، وبالتالي يكون ابن المعتز قد جمع بين النقد والبلاغة حين جعل العناصر البلاغية مقاييساً صالحة للنقد الأدبي.

وما يهمنا من كتاب البديع هو أنه يمثل مرحلة التطور البلاغي من تسجيل الملاحظات إلى وضع الدراسات.

2 – 1 – 2 – عيار الشعر لابن طباطبا (ت 322هـ):

تحدث ابن طباطبا في كتابه «عيار الشعر» عن صناعة الشعر والميزان الذي تقاس به البلاغة "ولعل من أبرز ما تناوله في الصنعة الشعرية ومعيارها موضوع التشبيه"[2] الذي فصَّل فيه القول عارضاً لعديد الأنواع من التشبيهات، ومعتمداً في ذلك على دراسات السابقين، "ومبحثه فيه يعد أهم مبحث في كتابه يتصل بالبلاغة وتطور البحث في مسائلها"[3].

كما مزج ابن طباطبا بين النقد والبلاغة، "وأياً ما كانت آراؤه في التشبيه فإن الرجل كان من أوائل من تناولوا هذا الموضوع بمثل هذا العمق وهذا التوسع في نقدنا العربي القديم"[4]، ولذلك حظيت آراؤه النقدية بأهمية كبيرة لتأثيرها البالغ في مسار البلاغة والنقد العربي.

2 – 1 – 3 – كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي (ت 371هـ):

استهل الآمدي كتاب «الموازنة» ببيان مذهبين للشعر، مذهب المطبوعين ويمثله البحتري ومذهب المتكلفين الذي يمثله أبو تمام، وجعل معهما الأدباء والنقاد والعلماء في قسمين، "فأما

[1] – مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص73–74.

[2] – المرجع نفسه، ص81.

[3] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص124.

[4] – علي عشري زايد، النقد الأدبي والبلاغة في القرنين الثالث والرابع(المصادر والقضايا)، مكتبة الشباب، القاهرة، ط2، 1995م، ص92.

الكتاب والأعراب والشعراء المطبوعون وأهل البلاغة العربية فيؤثرون البحتري، وأما أصحاب الفلسفة والمعاني العويصة والشعراء أصحاب الصنعة (البديع) فيؤثرون أبا تمام"[1]، وبذلك احتدم الجدال حول الشاعرين أو المذهبين.

ومع أن الجانب البلاغي في الكتاب ضئيل مقارنة بالجانب النقدي، إلا أن الآمدي قد عرض "إلى كثير من الفنون البلاغية التي استعملها كل من الشاعرين، فيستعين بها على الموازنة بينهما، إنه يفاضل بين استعارات وتشبيهات، ويوازن بين أنواع بديعية وقعت في شعر الشاعر"[2]، وذلك من أجل المفاضلة بين الشاعرين، والانتصار لمذهب على حساب الآخر، ومعظم ما تعلق بالبلاغة في كتاب الموازنة كان مخصصاً "لبيان إسراف أبي تمام في استخدام الاستعارات الغريبة المستكرهة، والجناس والطباق القبيحين"[3] وذلك ما يعتبره الآمدي عيباً، لرداءة تلك الاستعارات في الحقيقة، ولإساءة استخدام المطابقة والتجنيس.

2 – 1 – 4 – كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني (ت 392هـ):

لم يهتم القاضي الجرجاني بالجانب البلاغي كثيراً في كتاب «الوساطة»، "فقد تحدث عن البديع حديثاً سريعاً وأورد أمثلة من الاستعارة الحسنة والسيئة، ومن التجنيس الجيد والرديء"[4]، إلا أنه فرَّق بين كثير من الفنون البلاغية التي كانت متداخلة، مثلما فرَّق "بين الاستعارة وبين تلك الصورة التشبيهية التي عرفت فيما بعد باسم «التشبيه البليغ»"[5]، وهما صورتان كانتا متطابقتين عند الكثيرين.

[1] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص128.
[2] –مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص81.
[3] – علي عشري زايد، النقد الأدبي والبلاغة، ص145.
[4] – علي عشري زايد، البلاغة العربية، ص97.
[5] – المرجع السابق، ص160–161.

أما عن اختلاط قضايا البلاغة بالنقد فقد "كان حديث الجرجاني عن شعر أبي الطيب حديثاً امتزج النقد فيه بالبلاغة، أو كانت البلاغة فيه عنصراً أساسياً من عناصر النقد"[1]، وبذلك كان كتاب الوساطة ذا أهمية بالغة في تاريخ البلاغة والنقد.

2 – 2 – بيئة الفلاسفة:

2 – 2 – 1 – كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر (ت 337هـ):

تناول قدامة في كتابه «نقد الشعر» كثيراً من الفنون البلاغية "توزعتها علوم المعاني والبيان والبديع، وذلك كالتتميم، والإيغال، والمساواة ، والتشبيه، والاستعارة، والتمثيل، والإرداف، والتصريع والسجع، والجناس ..."[2]، وهذه المصطلحات وغيرها قد أسهمت في إغناء المعجم البلاغي والنقدي.

وما يلاحظ على الكتاب طغيان"التأثرات الفلسفية في التقسيم والتفريع ومحاولة مَنْطَقة كل شيء"[3] عند تصنيف قدامة لأنواع من البديع، وذلك يعني تأثره بمقاييس البلاغة اليونانية وبالمنهج الفلسفي، مما أدى إلى تغريب البلاغة العربية، وابتعاده عن الروح الأدبية التي تمتع بها ابن المعتز في كتاب البديع.

2 – 2 – 2 – نقد النثر (كتاب البرهان في وجوه البيان) لإسحق ابن وهب:

لقد ألَّف ابن وهب كتاب «البرهان» "معارضةً لكتاب الجاحظ المسمى بالبيان والتبيين"[4]، إلا أنه في الواقع قد تأثر به كثيراً، وذلك في تقسيمه للبيان حين جعله في أربعة أوجه: بيان الاعتبار، بيان

[1] – مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص81.
[2] – المرجع نفسه، ص77 – 78.
[3] – رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط2، ص27.
[4] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص96.

الاعتقاد، بيان العبارة وبيان بالكتاب[1]، والملاحظ في هذا التقسيم لوجوه البيان هو قربها من أصناف الدلالات التي أحصاها الجاحظ.

والواضح أن الأثر اليوناني كان بارزاً ،كون ابن وهب لم يكتف بالأخذ من كتابي الخطابة والشعر لأرسطو، وإنما توسع في الأخذ من كتابي المنطق والجدل أيضاً، كما أن الوجوه البلاغية التي استقاها من أرسطو لم يحسن تطبيقها مثلما فعل قدامة، إضافةً إلى أننا لا نجد ذكراً لابن وهب في معظم كتابات البلاغيين، والسبب في ذلك يعود إلى أنه قد أوغل في الاستعارة من التفكير اليوناني[2] ما دفع البلاغيين إلى عدم الاهتمام بمؤلفه، وعدم شهرته مثلما اشتهر كتاب البديع لابن المعتز وكتاب نقد الشعر لقدامة.

2 – 3 – بيئة الأدباء:

2 – 3 – 1 – كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري (ت 395هـ):

ألَّف العسكري كتاب «الصناعتين الكتابة والشعر» ليجعل "أهم أهداف البيان أو البلاغة

غرضاً كلامياً هو إثبات إعجاز القرآن، ولذلك كان علم البلاغة في نظره أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالحفظ بعد المعرفة بالله جلَّ ثناؤه"[3]، لأنه علم يعرف به الإعجاز القرآني من كل وجوهه.

كما جعل كتابه في عشرة أبواب "تشتمل على ثلاثة وخمسين فصلاً، تتناول الموضوعات البلاغية المختلفة من تحديد موضوع البلاغة لغةً واصطلاحاً، إلى تمييز جيد الكلام من رديئه، ومعرفة صنعته وحسن الأخذ وقبحه، إلى ذكر الإيجاز والإطناب، والتشبيه، حده، وما يستحسن منه وما يستقبح وذكر السجع والازدواج، والقول في البديع ووجوهه وحصر أبوابه وفنونه..."[4]، كلها مفاهيم

[1] – ينظر: بدوي طبانة، البيان العربي، ص76 – 77.
[2] – ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص101–102.
[3] – بدوي طبانة، البيان العربي، ص79.
[4] – مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص84 – 85.

ومصطلحات تندرج ضمن الدرس البلاغي، عني فيها بكثيرٍ من الأمثلة والشواهد ما ينم عن ذوقه الأدبي الرفيع.

2 – 3 – 2 – كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني (ت 463هـ):

عالج ابن رشيق في كتابه «العمدة» العديد من الموضوعات الأدبية والقضايا النقدية فأفاض في الحديث عن الشعر ونقده، وذكر كثيراً من الفنون البلاغية، "حيث يفرد للبديع خمسة وثلاثين باباً كما فعل العسكري وإن خالفه في بعض أسمائه ومصطلحاته كما ذكر في كتابه باباً للبلاغة وباباً للإيجاز وباباً للبيان"[1]، وهو ما يبين أن علم البديع قد حظي باهتمام بليغ من ابن رشيق.

وما يمكن قوله هو أن حظ التأصيل البلاغي عند ابن رشيق ضئيل، إلا أن قيمة كتابه العمدة تكمن في "فضل الجمع بين خيرة آراء السابقين مما يغني عن قراءة كتبهم، فهو خلاصة يجد فيه القارئ بغيته دون الرجوع إلى ما كتبه السابقون عن أبواب البلاغة"[2]، وهو ما يحسب لابن رشيق كي يكون حلقة مهمة في تاريخ التأليف البلاغي.

2–3–3–كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (ت 466هـ):

يتضح من خلال عنوان كتاب «سر الفصاحة» لابن سنان أن الجانب الأكبر منه مخصص للحديث عن الفصاحة وما يتعلق بها، حيث يدعو إلى وجوب معرفة الفصاحة لأنها الطريق إلى فهم بلاغة القرآن، إلا أنه "يفرق بين لفظي الفصاحة والبلاغة، فالفصاحة عنده خاصة بالألفاظ، وأما البلاغة فهي للألفاظ مشتملة على المعاني"[3]، ولعل هذا التفريق الذي وضعه ابن سنان كان له أثرٌ في دراسات البلاغيين الذين جاؤوا من بعده.

---

[1] – رجاء عيد، فلسفة البلاغة، ص31.

[2] – عبد القادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة، ص125 – 126.

[3] – مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص88.

كما ذكر ابن سنان العديد من المباحث البلاغية "حيث تناول فصاحة اللفظة، ثم بيَّن ما يتصل من ألوان البديع بجهة اللفظ وما يتصل بجهة المعنى، مما فتح الطريق إلى تقسيم ألوان البديع إلى لفظية ومعنوية"[1]، وذلك ما جعل مباحث البديع منفصلة فيما بعد عن علمي المعاني والبيان.

لقد تحدث ابن سنان بصورة عميقة في فصاحة اللفظ المفرد وفصاحة التركيب، كما عرض لكثير من الصور البيانية وفنون البديع، "ولكنه لم يعرضها عرضاً قاعدياً، وإنما يعرضها عرضاً أدبياً نقدياً"[2]، مبيناً أثرها في صناعة البيان، ومبرزاً مواطن القبح والحسن فيها، وذلك ما يدل على صحة واستقامة الذوق الأدبي لابن سنان.

2-4- بيئة المتكلمين:

2-4-1- النكت في إعجاز القرآن للرماني (ت 386هـ):

تحدث الرماني في رسالته «النكت» عن وجوه إعجاز القرآن، فجعلها سبعة أوجه، منها البلاغة التي جعلها في "ثلاث طبقات: عليا ووسطى ودنيا، والعليا هي بلاغة القرآن، والوسطى والدنيا بلاغة البلغاء حسب تفاوتهم في البلاغة"[3]، فما كان أعلاها طبقة فهو معجز يختص بالقرآن وما كان دونها فهو ممكن عند بلغاء العامة من الناس.

أما عن أقسام البلاغة فقد جعلها في: الإيجاز، التشبيه، الاستعارة، التلاؤم، الفواصل، التجانس التضمين، التصريف، المبالغة وحسن البيان[4]، حيث فصل الحديث في كل قسم منها، مستشهداً بآيات القرآن الكريم، وبذلك يكون قد أفاد البلاغيين من بعده بما نثره من ملحوظات بلاغية.

[1] – رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، ص31.

[2] – بدوي طبانة، البيان العربي، ص115.

[3] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص104.

[4] – ينظر: فضل عباس، البلاغة المفترى عليها، ص126-127.

2-4-2- إعجاز القرآن للباقلاني (ت 403هـ):

ألَّف الباقلاني «إعجاز القرآن» للرد على الطاعنين في القرآن الكريم، وجعل وجوه إعجازه في الإخبار عن الغيوب والقصص الديني وسير الأنبياء، وبلاغته التي تعنينا فنونها، "فذكر الاستعارة والتشبيه والتمثيل، والكناية، والتعريض،وهي من مباحث علم البيان، وذكر التكرار، والإيغال والتوشيح، والالتفات وهي ألصق بمباحث علم المعاني، وذكر كثيراً من مباحث علم البديع، كالجناس والمقابلة، والمطابقة وصحة التقسيم، ورد العجز على الصدر، وصحة التفسير، إلى غير ما هنالك من أنواع كثيرة"[1]، وبعد أن يحصر الباقلاني عشرة وجوه لإعجاز القرآن البلاغي أو بديع نظمه يتوصل إلى نتيجة مفادها "أن القاسم المشترك بين هذه الوجوه هو مخالفة البيان القرآني لكلام البشر"[2]، وهي القضية التي اشتغل عليها على امتداد صفحات كتابه، محاولاً إثباتها بتحليل بعض أروع النماذج الأدبية المتفق على بلاغتها.

2-4-3- إعجاز القرآن للقاضي عبد الجبار(ت 415 هـ):

ألَّف عبد الجبار كتابه «المغني في أبواب التوحيد والعدل»، وقد خصَّص الجزء السادس عشر منه لإعجاز القرآن، حيث يتحدث عن فصاحة الكلمة المنفردة التي لا تكون إلا في القرآن، "فالكلمة الفصيحة لا تظهر فصاحتها إلا مع أخواتها، فتكون فصيحة في موضع من كلام الناس، وغير فصيحة في موضع آخر. أما القرآن فالكلمة فيه تكون فصيحة أبداً، لأن منزل القرآن –وهو الله تعالى- يضع الكلمات في مواضعها"[3]، وهذه إحدى الصور لبيان إعجاز القرآن في ألفاظه، كما أثبت عبد الجبار للمعاني "حُسناً في الفصل الأول ولكنه لم يعتد بها في الفصاحة، إذ مضى يسجل في براعة نظريته

[1] – فضل عباس، البلاغة المفترى عليها، ص129.

[2] – علي عشر زايد، البلاغة العربية، ص57.

[3] – عبد القادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة، ص36.

في الوجوه التي تتفاوت بها ارتفاعاً وهبوطاً، وقال إنها لا ترجع إلى المعاني بحال وإنما ترجع إلى انتظام الكلمات في التعبير"[1]، وهو يتطابق في ذلك مع عبد القاهر الجرجاني تطابقاً بيناً في نظرية النظم.

كانت هذه إطلالة على بعض المؤلفات البلاغية والنقدية في مرحلة الدراسات المنهجية، والتي يمكننا أن نحدد أهم ملامحها كملاحظات عامة فيما يلي:

أ/ الالتزام بالمنهج العلمي، وإن كان هناك تفاوت في ذلك بين المؤلفات، "ولعل من أكثر كتب المرحلة التزاماً بالمنهج العلمي كتاب «نقد الشعر» لقدامة، الذي التزم فيه صاحبه منهجاً على قدر كبير من الإحكام والصرامة والدقة"[2]، حيث يكاد يخلو من الحشو والاستطراد الذي ميّز مرحلة الإشارات البلاغية.

ب- بدأت تتبلور وتتحدد مدلولات بعض المصطلحات، ولعل الفضل يعود إلى قدامة الذي "حشد مصطلحاً كبيراً أصبح مادة هامة في نقد الشعر وفي البلاغة على السواء"[3]، وهو ما فتح المجال لمن جاء بعده في تنمية المصطلحات وتعديلها، وإثراء المعاجم البلاغية والنقدية.

ج- ظلت علوم البلاغة الثلاثة مختلطة وغير متمايزة، وقد برز البديع الذي رسَّخه ابن المعتز في كتابه "البديع"، وإن "كان يستخدم بمدلول محدد يشمل الصور البلاغية من «استعارة» و«تشبيه» و«جناس» و«طباق»"[4]، والتي أصبح بعضها يندرج ضمن علم البيان فيما بعد.

3- مرحلة ازدهار الدراسات البلاغية:

كانت البلاغة العربية عبارة عن إشارات وملحوظات مبثوثة في تضاعيف الكتب منذ عصر التدوين، وبدأت تنمو وتتطور إلى أن وصلت مرحلة النضج والازدهار على يد شيخ البلاغة عبد

[1] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص118.
[2] – علي عشري زايد، البلاغة العربية، ص102.
[3] – إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط4، 1983م، ص194.
[4] – المرجع السابق، ص104.

القاهر الجرجاني، فأصبحت علماً مستقلاً قائماً بذاته، له قواعده وأساليبه وفنونه التي تميزه عن بقية علوم العربية الأخرى.

3-1- دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ):

لقد بلغت البلاغة العربية في القرن الهجري الخامس أوجّها، كان رائدها الأول الإمام عبد القاهر الجرجاني، وذلك من خلال مؤلفين بارزين هما: «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة»، "إذ استطاع أن يضع نظريتي علمي المعاني والبيان وضعاً دقيقاً، أما النظرية الأولى فخص بعرضها وتفصيلها كتابه «دلائل الإعجاز» وأما النظرية الثانية فخص بها وبمباحثها كتابه «أسرار البلاغة»"[1]، فكانتا نظريتين متكاملتين ومنعطفاً خطيراً في تاريخ التأليف البلاغي.

إن ما دفع عبد القاهر لتأليف كتاب الدلائل هو اهتمامه بأسلوب القرآن الكريم ونظمه، ورد الشبه التي أثارها الطاعنون في الإسلام والقرآن، "وقد سعى عبد القاهر في هذا الكتاب إلى إثبات أن بلاغة الكلام تكون في النظم وأن القرآن معجز بالنظم لا بالصرفة"[2]، وبذلك فإن سر الفصاحة هو ارتباط الكلام بعضه ببعض، وليس المقصود بالنظم هو ترابط الألفاظ وإنما هو تتالي المعاني واتساقها فيما بينها، وبأسلوب عقلي ومنطقي يمضي عبد القاهر "ليثبت ما يريد من أن إعجاز القرآن ليس في ألفاظه المفردة، فاللفظ المفرد لا قيمة له في ميزان البلاغة، وإنما البلاغة في الأسلوب أو الصياغة أو «النظم»، وما النظم عند الجرجاني إلا ائتلاف الألفاظ ووضعها في الجملة الموضع الذي يفرضه معناها النحوي"[3]، فلا يكون النظم إلا بتوخي معاني النحو، وبذلك فإن نظرية النظم أساسها هو علم النحو.

---

[1] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص106.

[2] – أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1973م، ص34.

[3] – مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص93.

وبعد أن بنى عبد القاهر القواعد العامة لنظرية النظم أخذ يفصل القول فيها مستعيناً بالفنون البلاغية المختلفة كالاستعارة والكناية والمجاز والتمثيل لإثباتها، "ولا سيما تلك التي لها تعلق بتركيب الجملة والعبارة كالفصل والوصل والتقديم والتأخير والحذف والذكر وارتباط الكلام بالحروف والأدوات"[1].

ومن خلال ضرب الأمثلة والاستشهاد بالقرآن الكريم أو الشعر، استطاع عبد القاهر "أن يرسي قواعد علم المعاني على أساس من المعرفة والعقل والذوق، وفي ضوء المثل والدليل والبرهان"[2]، وهي سمة برزت عنده في جمع صفات العالم، صاحب العقل الراجح، والذوق الأدبي المرهف الذي يعتبر أحد الشروط المهمة في تبيان جيد الكلام من رديئه، وإدراك أسرار الجمال في نظم الكلام.

اختلف هدف عبد القاهر في كتاب "أسرار البلاغة" عن هدفه في الدلائل، "فهو لم يؤلفه لغرض ديني أو مسألة تتعلق بالإعجاز وإنما ألفه لغاية بلاغية فوضع الأصول والقوانين وبين الأقسام وذكر الفروق بين العبارات والفنون البيانية"[3]، وبذلك وُفِّق في إبراز نظرية علم البيان وتوضيحها من خلال الموضوعات التي قد سبق دراستها وعلاجها كثير من العلماء والنقاد الذين سبقوا عبد القاهر أمثال ابن المعتز وقدامة وابن سنان، وغيرهم من الذين تناولوا الفنون البلاغية وعالجوها مثلما عالجها عبد القاهر، والتي من بينها "الحقيقة والمجاز، والاستعارة، والتشبيه، والتمثيل، والكناية والتعريض"[4]، إلا أن عبد القاهر قد تناولها بكثير من العمق، وبيَّن أثر كل فن في العمل الأدبي وكشف عن عيوبها ومحاسنها وربطها ربطاً وثيقاً بالدراسات النفسية، "ولم نجد عالماً بالأدب أو ناقداً من نقدته استطاع أن يذلل فن الكلام لعلم النفس ويخضعه له...كما استطاع عبد القاهر أن

[1] – أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، ص34.

[2] – مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص94.

[3] – المرجع السابق، ص38.

[4] – بدوي طبانة، البيان العربي، ص149.

يفعل"[1]، فهو عمل جديد، لا من حيث الموضوع، وإنما من حيث منهج البحث وأسلوب التناول وهذا النزوع النفسي في دراسة البلاغة ونقد الأدب يكاد ينفرد به عبد القاهر عن الدارسين.

لقد وضع عبد القاهر القوانين لنظريتي المعاني والبيان في كتابيه: الدلائل والأسرار، ولكنه لم يهتم بالبديع ولم يتوسع في فنونه، "وواضح أنه لم يحاول وضع نظرية في علم البديع، وإن كان فصل القول في أسرار البلاغة عن الجناس والسجع وحسن التعليل وأشار غير مرة إلى الطباق، ولكنه لم يحاول وضع نظرية عامة له"[2]، ولو حاول ذلك لاكتملت المعالم النظرية لعلوم البلاغة العربية الثلاث (المعاني والبيان والبديع).

إن ما قام به عبد القاهر في بناء صرح البلاغة العربية هو أعظم إنجاز في تاريخ التأليف البلاغي وبذلك "يعد بحق واضع أسس البلاغة العربية والمشيد لأركانها، والموضح لمشكلاتها، والذي على نهجه سار المؤلفون من بعده، وأتموا البنيان الذي وضع أسسه"[3]، وفي طليعتهم الزمخشري الذي سار على خطى عبد القاهر في الدراسات البلاغية.

3-2- الكشَّاف للزمخشري (ت 538هـ):

خلف عبد القاهر علمٌ آخر من أعلام البلاغة العربية، وهو المعتزلي المفسِّر الزمخشري صاحب «الكشَّاف»، الذي كشف فيه عن وجوه الإعجاز البلاغي في القرآن، وعن خفايا معانيه وأسراره وزاد في توضيح الكثير من المسائل البيانية، "فقد طبَّق فيه آراء عبد القاهر المتعلِّقة بالمعاني والبيان تطبيقاً نموذجياً، محللاً مستقصياً حتى أوفى على الغاية، ولم يترك من أساليب البلاغة الفنية باباً إلا ولجه وأدلى فيه بسهم"[4]، فأثبت بذلك قدمه الراسخة في علم البلاغة تنظيراً وتطبيقاً على السواء.

---

[1] – بدوي طبانة، البيان العربي، ص151.

[2] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص218-219.

[3] – عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص22.

[4] –عبد القادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة، ص185.

جعل الزمخشري علمي المعاني والبيان أهم عدَّة لتفسير آي القرآن الكريم، معتقداً "أنه ما من فقيهٍ، ولا متكلمٍ، ولا لغويٍ ولا نحويٍ، ولا حافظٍ أو واعظٍ، أياً كان مبلغه من علمه، يستطيع أن يتصدَّى لتفسير القرآن مالم يبرع في علمين مختصين في القرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان"[1] وهي إشارة واضحة للفصل بين العلمين، وبذلك يكون أول من ميَّز بينهما، بعد أن كان السابقون يجعلون البلاغة والفصاحة والبيان ألفاظاً مترادفة وذلك عند عبد القاهر، كما كانت تسمى جميعها بالبديع عند ابن المعتز.

لقد كانت للزمخشري إضافات كثيرة في علمي المعاني والبيان، وخاصةً "في استكمال صور الكناية والاستعارة والمجاز المرسل والمجاز العقلي، وإحكام وضع قواعدها إحكاماً دقيقاً"[2]، مقرونةٌ بشواهد قرآنية وآراء تدل على تعمُّقه وفطنته في رصد المعاني والإحاطة بأفانين التعبير البيانية. ومضى الزمخشري على هدى عبد القاهر فيما يخص ألوان البديع التي لم يعنى بتفصيل القول فيها، وقد أشار إلى بعضها كالطباق، المشاكلة، اللف والنشر، الالتفات، تأكيد المدح بما يشبه الذم، مراعاة النظير والتناسب التقسيم، الاستطراد، التجريد[3]، وهي ألوان لم يبسط الكلام فيها لأنها تأتي في ذيل علمي المعاني والبيان وذلك يتفق مع ما يراه السكاكي في جعل البديع ومحسناته تابعاً لهما.

إن ما قام به عبد القاهر الجرجاني في تأسيس نظريتي المعاني والبيان، وتطبيقات الزمخشري عليهما والإضافات الجديدة التي استكمل بها قواعدهما هو أفضل مرحلة في تاريخ التأليف البلاغي والتي أعقبتها حالة من السبات العميق وكثير من الجمود والتعقيد.

[1] – مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص106.

[2] – عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص29.

[3] – ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص266–269.

المبحث الرابع: مرحلة التعقيد والجمود

رأينا بأن الدراسات البلاغية قد ازدهرت وبلغت أوجَّها على يد عبد القاهر الجرجاني والزمخشري، فوضع الأول نظريتي المعاني والبيان، وأما الثاني فطبَّقهما تطبيقاً بارعاً على آيات القرآن الكريم، وبعد ذلك توقف الإبداع الفني في تناول المسائل البلاغية وبدأت مرحلة التعقيد والجمود، "مما دفع بقواعد النظريتين جميعاً إلى أن تصبح قواعد جافة جامدة"[1]، ولعل السبب يعود إلى جمود الأدب شعراً ونثراً، والذي "أخذ يزداد حِدَّةً مع الزمن لما استقر في نفوس الأدباء من أن مَنْ سبقوهم استنفدوا المعاني ولم يعد لهم إلا أن يعيدوها، مدخلين عليها صوراً من التكلف والتعقيد"[2]، فلا يستطيع الشاعر أو الكاتب أن يأتي بالمعاني الطريفة والممتعة التي تؤثر فينا، وإنما أصبح كلامه جافاً وذوقه سقيماً ما أسهم في تأخر البلاغة.

لقد خلف علماء البلاغة خلفٌ أضاع أصالة البلاغة، وذلك يعود لتأثرهم بالفلسفة والكلام والمنطق، فجاءت بلاغتهم خالية "مجردة من أسباب الحياة، جافة لا روح فيها، معقدة لا (بيان) يوضحها، مقيدة بالحدود، وإذا هي غادرتها فإلى جدلٍ فلسفيٍ لا أثر للبلاغة الحية فيه"[3]، وهذه الصفات نلمسها في التلخيصات والشروحات التي أعقبت ازدهار البلاغة، فكان أولها ما قام به فخر الدين الرازي في كتابه «نهاية الإيجاز».

1-كتاب نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي (ت 544هـ):

كان كتاب «نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز» للفخر الرازي عبارة عن تلخيص لكتابي عبد القاهر الجرجاني «دلائل الإعجاز» و «أسرار البلاغة»، ولكنه "لم يُبق في تلخيصه لهذين الكتابين إلا هيكلاً لعلوم البلاغة يتسم بالجفاف والركود، ثم أَقحم على هذه القواعد الجافة كل ما هو بعيد

[1] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص271.
[2] – المرجع نفسه، ص272.
[3] – مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص108.

عن ميدان البلاغة وفنونها، فأضاف شيئاً من المنطق والفلسفة، والكلام والجدل، والفقه والأصول وغير ذلك"[1]، فالكتاب تنظيم وتبويب لما كتبه عبد القاهر، حيث جعله في أسلوب علمي كثير التقسيمات والتفريعات، سائر نحو الجمود والتعقيد، وبعيد عن الفهم الدقيق للبلاغة التي تحولت إلى علم جاف و"خرجت عن وظيفتها الأصلية من تربية الذوق وإحكام الملكة الأدبية"[2]، فأصبحت من علوم اللغة التي تشوبها الفلسفة والمنطق والقوانين الصارمة.

2- مفتاح العلوم للسكاكي (ت 626هـ):

يعد «مفتاح العلوم» أهم كتب السكاكي، وقد قسّمه إلى ثلاثة أقسام رئيسة إذ "خصَّ القسم الثالث بعلم المعاني وعلم البيان وألحق بهما مبحثاً عن البلاغة والفصاحة، وآخر عن المحسنات البديعية اللفظية منها والمعنوية"[3] فجعل علمي المعاني والبيان مرجعاً للبلاغة، ونظر للفصاحة على أنها مرجعٌ للمحسنات البديعية التي اعتبرها توابع للمعاني والبيان، "وما وضعه السكاكي في مفتاح العلوم من تقسيم لعلوم البلاغة هو الذي أخذ به علماء البلاغة من بعده، وهو الذي استقرت عليه هذه العلوم إلى يومنا الحاضر"[4]، وبذلك يكون السكاكي قد مهَّد للبلاغة العربية المتضمنة للعلوم الثلاثة وهي الصورة التي جمدت عليها.

إن القسم الثالث من «مفتاح العلوم» هو تلخيص لعلوم البلاغة التي جمع فيها بين أفكاره الخاصة وأفكار البلاغيين من قبله، حيث اعتمد على تلخيص الفخر الرازي وكتابي عبد القاهر: الدلائل والأسرار، والكشاف للزمخشري، وبالمقارنة اتضح أن تلخيص السكاكي "كان أكثر ضبطاً وتنظيماً للمسائل، مع ترتيب المقدمات وإحكام القياس"[5]، إلا أن تحليلاته طغت فيها القواعد

[1] – عبد القادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة، ص187.
[2] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص286.
[3] – عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص30.
[4] – مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص110-111.
[5] – المرجع السابق، ص31.

والقوانين على روح البيان والجمال الفني، وذلك بسبب استخدام السكاكي للمنطق من أجل تقنين البلاغة وتقعيدها.

مهما قلنا عن السكّاكي بأنه صبغ كتابه بثقافته النحوية والفلسفية والمنطقية والكلامية فتمسك بالحدود والتعريفات، وأحب التقسيمات والتفريعات، وعَقَّدَ البلاغة بالقوانين والقواعد فإنه "ينبغي أن لا ننسى، ولا يجوز أن ننسى، أن البلاغة كانت بحاجة إلى من يحدد لها مصطلحاتها تحديداً تاماً، ومن يُفصِّل مسائلها، ويَفصِل بعضها عن بعض، وتلك حسنة لا ينبغي أن تُغْفَل"[1]، وما قام به السكاكي في وضع قواعد البلاغة باعتماد الفلسفة والمنطق اليوناني من حسن الترتيب والتبويب، قد جعل كتابه «مفتاح العلوم» محوراً للتأليف البلاغي، فتوالت حوله الشروح والتلخيصات.

ونلتقي بعد السكاكي بطائفة من علماء البلاغة الذين إما انحرفوا عن طريقته، وإما ساروا عليها تلخيصاً لمجهوداته، حيث سنتطرق لأهم شروحات وتلخيصات بعضهم،كبدر الدين بن مالك وضياء الدين بن الأثير، والخطيب القزويني.

3- المصباح لبدر الدين بن مالك(ت 686هـ):

إن كتاب ابن مالك «المصباح في علوم المعاني والبيان والبديع» هو "تلخيص لكتاب «مفتاح العلوم» للسكاكي، مع تجريده من تعقيداته المنطقية والكلامية والفلسفية"[2]، ومختصر للقسم الثالث من المفتاح، حيث لم يرجع فيه لعبد القاهر أو الزمخشري، كما أضفى عليه بعض التعديلات "من ذلك أنه نقل مبحث البلاغة والفصاحة من ذيل البيان إلى فاتحة المختصر"[3]، فأخرج هذا المبحث من علم البيان وجعله في مقدمة التلخيص.

[1] – فضل عباس، البلاغة المفترى عليها، ص145.

[2] – عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص38.

[3] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص315.

سار ابن مالك على رأي السكاكي في اعتبار علمي المعاني والبيان أساس البلاغة، أما الفصاحة فهي مرجع المحسنات البديعية "إلا أنه مع اعترافه بأنها توابع للبلاغة أو بعبارة أخرى لعلمي المعاني والبيان جعلها علماً مستقلاً بنفسه سمَّاه علم البديع"[1]، وبذلك يكون قد جعل البلاغة العربية في ثلاثة علوم (المعاني والبيان والبديع).

3-كتاب المثل السائر لضياء الدين بن الأثير (ت 637هـ):

لقد كان ابن الأثير من الذين انحرفوا عن طريق السكاكي في دراسة البلاغة، وذلك في كتابه «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»، حيث "تتسع عنده كلمة «علم البيان» لتشمل كذلك مباحث المعاني والبديع"[2]، فبذلك تصبح البلاغة مرادفة للبيان مثلما كان يراها الجاحظ.

إن المطلع على المثل السائر يجد فيه بأن ابن الأثير يزهو ويعجب بنفسه في كل فصل من فصول الكتاب، حيث يخبرنا في مقدمته "أن الناس ألَّفوا في علم البيان كتباً، وجلبوا ذهباً وحطباً، وما من تأليف إلا وقد تصفح شينه وسينه، وعلم غثَّه وسمينه، ثم أَعملَ رأيه فيما قرأ، وابتدع مسائل في علم البيان لم يسبقه إليها أحد، ولم يُنبِّهوا على شيء منها"[3]، فهو يعتد بنفسه اعتداداً شديداً ويُوهِن ما قام به البلاغيون ممن سبقه، ويدعي السبق في ابتكار مسائل في البيان.

بالرغم من تفاخر ابن الأثير وادعاءاته الكثيرة، وتهجمه على من سبقوه، والاضطرابات العديدة في معالجة المسائل البلاغية، إلا أن كتابه "يعد خير ما كتب منذ القرن السادس الهجري بعيداً عن مدرسة عبد القاهر وتلاميذه، لما يتخلله من لفتات جيدة"[4]، حيث خالف ابن الأثير طريقة السكاكي في تناول المادة البلاغية، فكانت تقسيماته وتفريعاته بعيدة عن المنطق، تعتريها جوانب من الذوق الأدبي والجمال الفني.

---

[1] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص315.

[2] – عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص39.

[3] – عبد القادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة، ص199.

[4] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص334-335.

4- تلخيص المفتاح والإيضاح للخطيب القزويني (ت 739هـ):

يعد الخطيب القزويني أبرز الذين لخصوا مفتاح العلوم للسكاكي، وهو أشهر تلخيص للقسم الثالث من الكتاب، حيث "غطَّى به على كل من لخَّصوه قبله وبعده من أمثال بدر الدين بن مالك وعبد الرحمن الشيرازي"[1]، واستبعد تعقيدات السكاكي من حشو واضطراب، وأضاف إليه من آرائه وآراء من سبقوه.

كما يبدو تأثر القزويني واضحاً بكتاب المصباح لبدر الدين بن مالك، وذلك في فاتحة التلخيص "فقد استهدى به في نقل حديث السكّاكي عن البلاغة والفصاحة عقب علم البيان إلى فاتحة الكلام عن العلوم البلاغية جميعاً"[2]، فتحدث عن الفصاحة وقسمها إلى ثلاثة أقسام: فصاحة مفرد وفصاحة كلام وفصاحة متكلم، وتحدث عن البلاغة التي يجعلها في الكلام والمتكلم فقط، "وهي في الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته"[3]، إذ يقصر مقتضى الحال على المعاني الإضافية في التعبير، دون مراعاة لأحوال السامعين،ثم يقسم التلخيص إلى ثلاثة فنون، يهتم كل فن بمباحث علوم البلاغة الثلاث (المعاني والبيان والبديع).

ولما رأى القزويني بأن ملخصه لا يفي بالغرض، شرع في تأليف كتابه "الإيضاح" كشرح له "وهو من أحسن ما صنف المتأخرون في البلاغة"[4]، حيث جمع فيه شتات علوم البلاغة، مستخرجاً زبدة ما خلفه أعلام البلاغة أمثال عبد القاهر الجرجاني والزمخشري والسكّاكي، "وقد يأخذ بما نقل عنهم ويضمنه كلامه، دون تفنيد أو اعتراض، وأحياناً يعترض على أقوالهم ويدحضها بقوله «وفيه نظر»"[5]، وبذلك كانت للقزويني إسهاماته من خلال نظراته وآرائه الخاصة في المسائل البلاغية.

---

[1] – عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص48.

[2] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص336.

[3] – المرجع نفسه، ص337.

[4] – مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص113.

[5] – عبد القادر حسين،المختصر في تاريخ البلاغة، ص250.

ومثلما أقبل القزويني على تلخيص وتوضيح «مفتاح العلوم»، أقبل العديد من البلاغيين على «تلخيص القزويني» تلخيصاً وشرحاً ونظماً، فمِمَّن نظمه شعراً نجد جلال الدين السيوطي في نظمه «الجمان»، ووضع له شرحاً سمَّاه «عقود الجمان»، وخضر بن مُحَمَّد صاحب «أنبوب البلاغة و«الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون» لعبد الرحمن الأخضري، وممن اختصر التلخيص نجد عز الدين بن جماعة وأبرويز الرومي، وزكريا الأنصاري، وقد كَثُر شُرَّاح التلخيص منهم مُحَمَّد بن مظفر الخلخالي في «مفتاح تلخيص المفتاح»، وبهاء الدين السبكي في شرحه «عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح»، وسعد الدين التفتازاني الذي وضع شرحين للتلخيص: «الشرح الكبير والشرح الصغير» وهؤلاء الشراح من علماء القرن الثامن الهجري، واستمر الاهتمام بتلخيص القزويني حتى القرن الثاني عشر مثل كتاب « مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح» لابن يعقوب المغربي[1].

ويمكن القول أن أطول الشروح كان للسبكي والتفتازاني، وهذا الأخير يعتبر شرحه الكبير أو المطول أهم شروح التلخيص، كما أن شراح تلخيص القزويني كان معظمهم "على اطلاع واسع بعلوم الفلسفة والمنطق وأصول الفقه والنحو والبلاغة"[2]، فلم يكن هدفهم التوضيح وإزالة المبهم في التلخيص بل كان غرضهم إبراز مدى إلمامهم بتلك العلوم، وبذلك زادت الصعوبات في فهم البلاغة العربية وتعلمها، وقد أصبحنا منذ القرن السابع الهجري في عصر التعقيد والجمود، أو لنقل "أن العصور المتأخرة منذ عصر الفخر الرازي والسكاكي لم تستطع أن تضيف إلى مباحث البلاغة مباحث جديدة من شأنها أن تبقي على ازدهارها الذي رأيناه عند عبد القاهر والزمخشري"[3] مع أن السكاكي قد صاغ قواعد عبد القاهر والزمخشري صياغة علمية، فإن هذه الصياغة كانت من أهم الأسباب في انحراف البلاغة نحو الجمود والعقم، كما أن الشروح والتلخيصات التي توالت لم تخرج عن هذه الدائرة.

[1] – ينظر: عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص56–57.

[2] – عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص57.

[3] – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص358.

حوصلة:

حاولنا من خلال هذا الفصل أن نتلقف الإرهاصات الأولى لنشأة البلاغة الإنسانية بصفة عامة، والبلاغة العربية بصفة خاصة، وذلك بالعودة إلى العصر الجاهلي والإسلامي ورصد ما فيهما من ملحوظات بلاغية، ثم حاولنا تتبع مسار التأليف البلاغي ومراحل تطوره، إلى أن بلغ أوجه مع عبد القاهر الجرجاني والزمخشري، واتجه بعد ذلك نحو الجمود.

ويمكننا أن نجمل ما توصلنا إليه في النّقاط التّالية:

1- كانت اليونان منشأ البلاغة الإنسانية، وأول من عرف فن الخطابة هم السفسطائيون فجعلوا لها مكانة تؤهلها لمنافسة الفلسفة، ومهدوا بذلك لأرسطو كي يرسي قواعد فن القول، وقد اختلف النقاد العرب المعاصرون حول تأثر البلاغة العربية بنظيرتها اليونانية من عدمه، إلا أن ما يمكن تأكيده هو تأثر بعض البلاغيين و النقاد مثل قدامة بن جعفر في كتابه «نقد الشعر».

2- كانت بذور البحث البلاغي عبارة عن أحكام نقدية وبيانية عامة، والتي نمت بعد مجيء الإسلام، "واستمرت الحياة العقلية الأدبية تأخذ طريق هذا النمو في حياة العرب بعد استقرارهم في أمصارهم المختلفة مما فتح الطريق لمزيد من الملاحظات الفنية والتي أخذت طريق الدقة إذا وصلنا إلى عصر العباسيين"[1]، وذلك بعد التحولات السياسية والثقافية والعقائدية التي عرفها المجتمع العربي وازدهار العلوم القرآنية واللغوية والأدبية.

3- اختلاط البلاغة العربية بالعلوم الأخرى، وترعرعها في كنف القرآن والأدب واللغة والنقد إذ لعبت بيئات مختلفة من اللغويين والفلاسفة والمتأدبين والنقاد دوراً كبيراً في نشأة البلاغة وتطورها إلا أن المتكلمين كان لهم الدور الريادي، حيث "اتخذوا من دراسة البيان أساساً اعتمدوا عليه

[1] – رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، ص24.

في دراسة إعجاز القرآن وسبيلاً إلى فهم معانيه وأحكامه، فعملوا على استخراج فنون بيانية جديدة أضافوها إلى جهود سابقيهم"[1]، وبفضل جهود تلك الطوائف نشأت علوم البلاغة العربية.

لقد جعلنا الفصل الأول كمدخل، تحدثنا فيه بإيجاز عن تاريخ البلاغة منذ بدايتها الأولى في اليونان، ونشأتها عند العرب وأطوار التأليف فيها حتى بلغنا مرحلة الجمود والتعقيد، وسندرس في الفصل الثاني كتاب «البلاغة العربية أصولها وامتداداتها» لمحمد العمري، وهو كتاب وثيق الصلة بتاريخ البلاغة العربية و اليونانية، إلّا أن هذه الدراسة ستكون قراءة في العتبات النصية للكتاب.

[1]– بدوي طبانة، البيان العربي، ص40.

المبحث الأول: عتبة المناص

تمهيد:

قبل توسع مفهوم النص لم تكن العتبات تثير أي اهتمام، ولم يُتوسّع في مفهوم النص إلاّ بعد التعرف على جزئياته وتفاصيله والتعرف على مجمل تعالق النصوص ببعضها، والتي أصبح لها شأن كبير في الفكر النقدي المعاصر، وتسمى أيضاً بالنص الموازي أو النص المصاحب (para texte) كما عرف مصطلح عتبات عدة ترجمات، مثل ترجمة مُحَّد بنيس: النص الموازي، ومختار حسني بالتوازي النصي، وسعيد يقطين بالمناص.

والمناص هو كل ما يشمل النص من عناوين رئيسة وعناوين فرعية، ومقدمات وذيول وصور والتمهيد والتقديم، وكلمة الناشر، والتعليقات...الخ.

كما يعتبر جيرارد جينيت (Gerard Genette) رائد العتبات في كتابه «عتبات Seuils» الذي صدر سنة1987م، الذي بيّن فيه أن لكل نص أدبي نصاً موازياً، والنص الموازي عند جينيت كما يقدم "تعريفاً مفصلاً في كتابه «عتبات» للمناص بجعله نمطاً من أنماط المتعاليات النصية، والشعرية عامة يتشكل من رابطة هي عموماً أقل ظهوراً وأكثر بعداً من المجموع الذي يشكله عمل أدبي، فالنص في الواقع لا يمكننا تسميته ومعرفته إلاّ بمناصّه "[1]، كيف لا وجينيت يعتبر الأب الروحي للمناص وتعريفه هذا يعتبر من التعريفات الدقيقة الذي حواه كتابه.

ويعرّفه عبد الحق بلعابد: "يُعدّ العنوان من أهم عناصر المناص (النص الموازي)، لهذا فإن تعريفه يطرح بعض الأسئلة، ويلح علينا في التحليل، فجهاز العنونة كما عرفه عصر النهضة أو قبل ذلك العصر الكلاسيكي كعنصر مهم، كونه مجموع معقد أحياناً أو مربك وهذا التعقيد ليس لطوله

[1]– عبد الحق بلعابد، عتبات جيرارد جينيت من النص إلى المناص، تقديم: سعيد يقطين، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008م، ص44.

أو قصره، ولكن مرده مدى قدرتنا على تحليله و تأويله"[1]، وهذا التعريف يبين مدى أهمية عتبة العنوان الذي يحمل عدة دلالات وقراءات.

وكذلك نجد في كتاب جيرارد جينيت «مدخل لجامع النص» حيث يقول: "والنص الموازي نوع من النظير النصي، الذي يمثل التعالي النصي بالمعنى العام "[2]، إذن فالمناصات تعتبر كالبوابة بالنسبة للدار، وهي همزة وصل مع النص، وهي العتبات نفسها التي تربط النص الأدبي بكل ما يحيط به من النصوص التي ذكرناها وبعض من لم نذكر مثل: المسودات والمشاريع غير المكتملة.

1/ تعريف المناص:

المناص هو "كل ما يجعل من النص كتاباً يقترح نفسه على قرائه أو بصفة عامة على جمهوره فهو أكثر من جِدار على حدود متماسكة، نقصد به هنا هو تلك العتبة بتعبير (بورخيس): البهو الذي يسمح لكل منا دخوله أو الرجوع منه "[3]، من هنا يتضح لنا أن للمناص أهمية بالغة في التعريف بالكتاب، وطرحه أمام الجمهور، حيث يعمل على تقريب النص للقارئ. وينقسم المناص إلى:

أ- المناص النشري/الافتتاحي (مناص الناشر) Editorial Para texte:

وهو كل الإنتاجات المناصّية التي تعود حقوقها للناشر، حيث يعتبر من العملية الافتتاحية المصاحبة للنص أو الكتاب، ويحتوي على العناصر التالية: اسم الكاتب، العنوان، الجلادة، كلمة الناشر، إخراج الكتاب، الصور المرفقة بالكتاب، "أما الصفحة الثانية والثالثة للغلاف تسمى الصامتتين، والصفحة الرابعة للغلاف فهي من بين الأمكنة الإستراتيجية للغلاف خاصة وللكتاب

[1]- عبد الحق بلعابد، عتبات جيرارد جينيت، ص65.

[2]- جيرارد جينيت، مدخل لجامع النص، تر: عبد الرحمن أيوب، دار الشؤون الثقافية العامة «آفاق عربية»، بغداد، دط، دت، ص90.

[3]- المرجع السابق، ص44.

بصفة عامة، ويوجد فيها اسم الكاتب، وعنوان الكتاب والناشر، كما نجد فيها ذِكر بعض أعمال الكاتب، وذكر بعض الكتب الصادرة من نفس دار النشر"[1]، ويضم قسمين:

1- النص المحيط النشري: ويضم صفحة العنوان، الجلادة وكلمة الناشر...الخ.

2- النص الفوقي النشري: ويشمل كل من: الإشهار، قائمة المنشورات، والملاحق الصحفية لدار النشر).

ويحتوي على خمسة عناصر هي كالتالي:

1- إسم الكاتب: مُحَمَّد العمري.

2- العنوان: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها.

3- الجلاّدة: بيضاء تحمل العنوان بخط أسود وبنّي.

4-كلمة الناشر: لم يورد الناشر (أفريقيا الشرق المغرب) كلمة في هذه الطبعة.

5- إخراج الكتاب: الخطوط المستعملة في الكتاب خطوط ذات حجم متوسط بلون أسود.

الصور المرفقة بالكتاب: زخرفة مرسومة بالبني والأصفر.

ب- المناص التأليفي/ مناص المؤلف (Paratext auctorial):

وهو يمثل الإنتاج التأليفي للكاتب أوالمناص التأليفي أو مناص المؤلف، حيث يهتم بسيرة المؤلف ويعطي حيزاً للكاتب الذي هو مُحَمَّد العمري في هذا المقام، من مواليد سنة 1945م بقرية الحارة على ضفاف وادي درعة جنوب المغرب، وهو خبير معتمد لدى اللجنة الوطنية لمنح الاعتماد في الدراسات العليا والدكتوراه، التابعة لوزارة التعليم العالي ابتداءاً من 1997م، وعضو منتخب باللجنة العلمية لكلية

1- عبد الحق بلعابد، عتبات جيرارد جينيت، ص48.

الآداب بجامعة فاس، وعضو مجلس الجامعة بها، كما شغل عضو اللجنة العلمية لشعبة اللغة العربية، وأخيراً عضو اتحاد كُتاب المغرب.

حاز مُحَمَّد العمري على الجائزة الكبرى للكتاب بالمغرب عن إصداره «تحليل الخطاب الشعري: البنية الصوتية» سنة 1990م، كما حاز سنة 2007م على جائزة الملك فيصل العالمية فرع اللغة والأدب في موضوع الأبحاث التي تناولت البلاغة العربية.

صدر له كتاب «في بلاغة الخطاب الإقناعي» سنة 1985م - «تحليل الخطاب الشعري البنية الصوتية في الشعر» سنة 1990م، «اتجاهات التوازن الصوتي في الشعر العربي القديم» سنة 1999م «الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية»، «الإفراني وقضايا الثقافة والأدب» سنة 1992م، «البلاغة العربية أصولها وامتداداتها»، «دائرة الحوار ومزالق العنف»، «أشواق درعية »، «العودة إلى الحارة (سيرة ذاتية 1) «البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول»، «منطق رجال المخزن وأوهام الأصولية» سنة 2005م، وأخيراً «زمن الطلبة والعسكر سيرة ذاتية 2» "[1]، كل تلك المؤلفات تدل على ثقافة العمري ومعرفته الواسعة بقضايا الأدب، وأنه صاحب مشروع في البلاغة.

كما أن للعمري نشاط علمي كبير، حيث "أنشأ وأدار مجلتي دراسات أدبية ودراسات سيميائية"[2]، هذا النشاط الغزير سواء من جانب المؤلفات، أو إلقائه للمحاضرات يدل على أن العمري رجل كان له بصمة في ترقية الدرس البلاغي.

ج- النص الفوقي التأليفي Epitexte: وينقسم إلى قسمين:

1- العام: "وتكمن فيه الخطابات خارج الكتاب، وتكون تابعة له كالاستجوابات والخطابات والمراسلات الخاصة والتعليقات والمؤتمرات والندوات"[3].

---

[1]- **ueimarocains. wordpress. Com** - مجلة اتحاد كتاب الانترنت المغاربة.

[2]- مُحَمَّد العمري، البلاغة، ص4.

[3]- المرجع نفسه، ص50.

2- الخاص: يتمثل في المراسلات والمذكرات الحميمية، وكل هذه الأقسام ربما تصب في اتجاه واحد وهو الدعاية التي تحصل للكتاب"[1]، هذه أنواع النص الفوقي التي لها أهمية كبرى في الترويج للكتاب.

2/ الغلاف: أول ما نقف عنده في الكتاب هو الغلاف، وهو الذي يلفت انتباهنا بمجرد حملنا للكتاب، لأنه العتبة الأولى من عتبات النص الهامة، كما يحتوي الغلاف على العنوان والصورة، وموقع اسم المؤلف، دار النشر ومستوى الخط، فالغلاف أحد "المناصات" البارزة، "ويشمل طريقة تصميم الغلاف ووضع المطالع وتنظيم الفصول، وتغيرات الكتابة المطبعية وتشكيل العناوين وغيرها"[2] وهنا تكمن أهمية الغلاف في عملية استمالة المتلقي، وغلاف «البلاغة العربية أصولها وامتداداتها» يتكون من أربع وحدات غرافيكية، تحمل عدة إشارات دالة، الأولى هي الصورة، والوحدة الثانية هي اللون الذي ميز الغلاف، والثالثة هي التجنيس، أما الأخيرة فهي العنوان، وهي وحدة كبيرة مستقلة بذاتها.

3/ الصورة: تعتبر الرسالة البصرية مثل الكلمة لما لها من أهمية كبرى، فالصورة أيقونة غير قابلة للتقطيع لأنها تستفز القارئ لتثير فيه الانفعال، والصورة هنا في «البلاغة العربية أصولها وامتداداتها» جاءت في أسفل الغلاف على شكل مستطيل احتوت على زخرفة مرسومة بالبني والأصفر البارد والأسود، من رسم فيليب تاف (Philip Taaffe)، وهو رسم يحيل المتلقي إلى الزخرفة الإسلامية المرتبطة بالحضارة الإسلامية الغابرة، وهو يحمل عمق ودلالة وأحاسيس، "وإن كانت مهمة تأويل هذه الرسومات التجريدية رهينة بذاتية المتلقي نفسه فقد يكشف علاقات تماثل بين العنوان أو النص عند قراءته له، وبين التشكيل التجريدي وقد تظل هذه العلاقة غائمةً في ذهنه"[3]، وفعلاً الصورة التي أرفقها العمري في غلاف كتابه تحيلنا مباشرة إلى مدلولات تتصل بالزمن الذي قويت فيه شوكة البلاغة أو على الأقل عُرفت فيه.

---

[1]- عبد الحق بلعابد، عتبات جيرارد جينيت، ص 50.

[2]- حميد لحمداني، بنية النص السردي «من منظور النقد الأدبي»، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1991م، ص55.

[3]- المرجع نفسه، ص60.

صورة مرفقة لواجهة الكتاب:

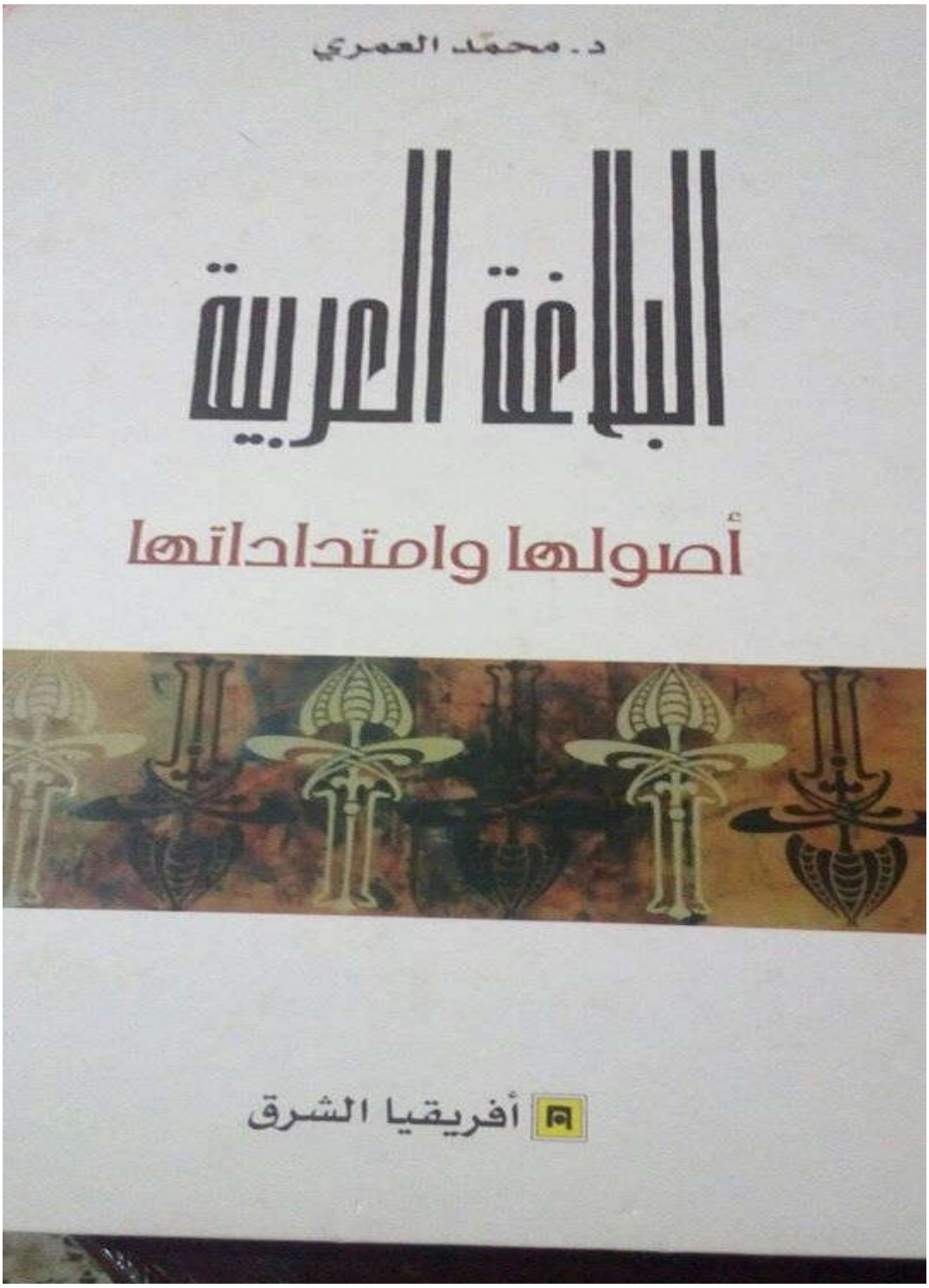

4/ اللون: لقد احتل اللون مكانةً في الغلاف باعتباره وظيفة تكنولوجية عندما حل محل اللغة، ومحل الكتابة، ولذا كان اللون رابطا بين نفسية المتحدث ونفسية المتلقي، والصورة واللون هما جزء من اللغة يفهمها كل العالم، وكتاب العمري غلب عليه اللون الأبيض والخطوط السوداء، وكما هو معروف فاللون الأبيض من دلالاته الثراء والتحضر والرقي والصفاء والسلام والإشراق والنقاء والبراءة.

كما لا ننسى اسم الكاتب الذي يعد من العناصر المناصية المهمة، فلا يمكن تجاوزه أو تناسيه فهو هوية صاحب الكتاب، ومن حقوقه الملكية الأدبية والفكرية، واسم المؤلف يعلو الصورة بلون أسود متوسط الحجم.

5/ التجنيس: إن التجنيس من العمليات الجرافيكية، وهو من الطرق الأولى للولوج إلى النص، فهو يساعد القارئ على أفق الانتظار ويفيد في عملية التلقي.

المبحث الثاني: عتبة العنوان

تمهيد:

العنوان يقصد به العنوان الأصلي وهو نفس العنوان الذي يحدده ليو هوك في قوله: "العنوان عبارة عن كتلة مطبوعة على صفحة الكتاب الحاملة لمصاحبات أخرى مثل: اسم الكاتب أو دار النشر"[1]، وقد وفق ليو هوك في شرحه للعنوان حيث قال أنه كتلة مطبوعة على الكتاب.

كما يعتبر العنوان من أهم عناصر المناص، فهو مجموع معقد أو مركب، وهذا التعقيد ليس لطوله أو لقصره بل لمدى قدرتنا على تحليله أو تأويله، وكما يقال:العنوان الجيد هو أحسن سمسار للكاتب، فيرى جينيت أن المستوى العملي للعنوان تتجاوز فيه وظيفة المطابقة بقية الوظائف باعتبارها أهم الوظائف، لأنها تريد أن تطابق بين عناوينها ونصوصها، ومد صفة موضوعاتي للعنوان تعبير عن اعتماد العناوين وصف مضمون النص.

أما العنوان في المستوى التداولي فتبرز فيه الوظيفة الاغرائية التي لها وزنها في إحداث إستراتيجية العنوان وتأطير النص، يقول جون بارث: "فإن يكون الكتاب أغرى من عنوانه أحسن من أن يكون العنوان أغرى من كتابه"[2]، وهذا حتى نحقق الميثاق الأخلاقي للقراءة.

1- العنوان ودلالته الرئيسة: كما هو معلوم أن العنوان هو المدخل الرئيس للنص وبه تظهر مساحات النص، فالعنوان يعلن عن طبيعة النص ويعلن عن نوع القراءة التي يتطلبها هذا النص.

[1]- عبد الحق بلعابد، عتبات جيرارد جينيت، ص67.

[2] - جيرارد جينيت، مدخل لجامع النص، ص97.

ثم يعطينا كلود دوشي claud duche، تعريفاً للعنوان على أنه "دراسة حالة التسويق ينتج عن التقاء ملفوظ روائي بملفوظ إشهاري، وفيه أساسا تتقاطع الأدبية والاجتماعية، ولكن الخطاب الاجتماعي في عبارات روائية "[1]، وهذا معنى بسيط وجامع للعنوان.

وقد جاء عنوان النص كما يلي: «البلاغة العربية أصولها وامتداداتها» منمقاً ذا سبك ومتانة يجمع في تجلياته بين الماضي البعيد الضارب في الزمن، وبين القريب المعاصر المتجدد، هذا العنوان شغل مكاناً على ظهر الغلاف، كما أنه شغل الصفحة الرئيسة، حيث أن كلمة البلاغة العربية كُتبت بالأبيض والأسود بخط عريض، بينما كلمة أصولها وامتداداتها كُتبت بلون بُنّي، وكانت هذه الكتلة اللغوية مطبوعة على خلفية بيضاء مُرفقة بصورة في الأسفل، وقد تكرر العنوان في الصفحة بعد الغلاف بلون أسود، كما أن العنوان جاء في سطرين وذلك لطوله، مثله مثل عناوين المؤلفات البلاغية المعروفة مثل «التفكير البلاغي عند العرب حتى القرن السادس»، وكذلك «منهاج البلغاء وسراج الأدباء»، كما شكّل العنوان مدخلاً ضرورياً للنص فهو الذي يحدد اتجاه القراءة.

2- العناوين الفرعية ودلالتها: العناوين الفرعية هي مجموعة من العلامات اللسانية الدالة من كلمات وجمل وحتى نصوص تأتي في أعلى النص لتدل عليه وتحيل إليه.

ومن أبرز من كانت لهم إسهامات كبيرة في مجال العنونة من الغربيين «ليو هوك Leo hoek»، من المؤسسين لعلم العنونة له كتاب «سمة العنوان la marque du titre»، حيث حدّد فيه مفاهيم العنوان وطرق تحليله، وكذلك جيرارد جينيت Genette Gerard) يعتبر أفضل من درس العنوان دراسة منهجية منظمة، من خلال كتابه عتبات «Seuils».

أ- العنوان لغةً: ورد في لسان العرب لابن منظور في باب العين مدخل: عنن.

عنَّ الشيء يعنُ، ويَعنُ عناً وعنُوناً: ظهر أمامك، وعنَّ واعنَنَ: اعترض وعرض ومنه قول امرؤ القيس: فعنَّ لنا سربٌ كأن نعاجهُ، والاسم العنن والعنان، قال ابن حلزة:

[1]- عبد الحق بلعابد، عتبات جيرارد جينيت، ص68.

عَنَناً بَاطِلاً وَظُلْماً، كَمَا تُعْ تَرُ عَنْ حُجْرَةِ الرَّبِيضِ الظِّبَاءُ

ما عنّ في السماء نجمٌ أي عرض من ذلك، والعنّة والعنة: الكتاب من ناحيتيه وأصله عَنان فلما كثرت النونات قلبت إحداهما واواً، ويقال للرجل الذي يُعرّض ولا يصّرح: قد جعل كذا وكذا عنواناً لحاجته وأنشد:

وَنَعْرِفُ فِي عُنْوَانِهَا بَعْضَ لَحْنِهَا وَفِي جَوْفِهاَ صَمْعَاءُ تَحْكِي الدَّوَاهِيَا

قال ابن برّي: والعنوان الأثر، قال سوار بن المضرّب:

وَحَاجَةٍ دُونَ أُخْرَى قَدْ سَنَحْتُ بِهَا جَعَلْتُهَا لِلَّتِي أَخْفَيْتُ عُنْوَانَا "[1]

ولا يبتعد العنوان عن هذه المعاني: الظهور، الاعتراض، الأثر، في بقية معاجم اللغة.

ب– العنوان اصطلاحاً:

تعددت دلالات العنوان وتنوعت الدراسات التي تطرقت لهذا المصطلح، بل ظهر كعلم مستقل خاص سمي علم العنونة، أو العنوانيات la titrologie، ويُعد لوي هويك أحد أكبر المعاصرين المؤسسين لهذا العلم، في كتابه «سمة العنوان»، فالعنوان له وقعٌ خاص في التأثير على القارئ "فالعنوان عبارة عن كتلة مطبوعة على صفحة العنوان الحاملة لمصاحبات أخرى مثل اسم الكاتب أو دار النشر"[2]، إذن للعنوان تأثير خاص في المتلقي حسب هويك.

يقول عبد الله الغذّامي في تعريفه للعنوان: "هو نوع من أنواع التعالي النصي transtextualité الذي يحدد مسار القراءة التي يمكن لها أن تبدأ من الرؤية الأولى للكتاب"[3] ويبدو أن الغذّامي قد جعل العنوان كعتبة أولى تُمكّن من تحديد رؤية للقارئ.

---

[1]– ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مج 9، ص310–312.

[2]– عبد الحق بلعابد، عتبات جيرارد جينيت، ص66.

[3]– عبد الله الغذّامي، الخطيئة والتكفير، النادي الثقافي جدة، السعودية، ط 1، 1985م، ص23.

ومن خلال هذا التحليل يظهر جلياً مدى قدرة بلعابد على ضبط المصطلح، ويقول أيضا "فقد أصبحت العناوين موضوعاً صناعياً Objet artificiel لها وقع بالغ في تلقي كل من القارئ والجمهور والنقد والمكتبيين...المشتغلون بالعنونة أي العنوانيون "[1]، وهنا يطرح بلعابد أهمية العنونة في مجال التلقي، ويقول أيضاً عن العنوان هو " مجموعة العلامات اللسانية، من كلمات وجمل، وحتى نصوص قد تظهر على رأس النص لتدل عليه وتعينه، تشير لمحتواه الكلي، ولتجذب جمهوره المستهدف"[2]، وهنا تظهر أهميته ومدى تناسبه مع ما يحبه الجمهور ويتلقاه.

3- العنوان في الدراسات الغربية والعربية:

3-1- العنوان في الدراسات الغربية:

يرجع الاهتمام بالعنوان في الدراسات الغربية، إلى النهضة الأوربية التي عرف فيها التأليف والصناعة نشاطاً غير مسبوق، خاصة مع ازدياد النشاط الأدبي والفني، واشتداد التنافس بين المطابع، وكل مطبعة تحاول جذب أكبر عدد من القراء، فلم يكتفوا بالصناعة وتجويد البضاعة فقط، بل شاركوا المؤلف في العنوان، ووضعوا لذلك قوانيناً وشروطاً.

3-2- العنوان في النقد العربي القديم:

غابت عن التراث النقدي العربي الدراسات المتخصّصة وهذا راجع إلى ثقافة المشافهة التي كانت سائدة آنذاك، من هنا يرى عبد الله الغذّامي أن العنوان بدعة مستحدثة، يقول: "العناوين في القصائد ماهي إلّا بدعة حديثة أخذ بها شعراؤنا محاكاة لشعراء الغرب، والرومانسيين منهم خاصة "[3]، وقول الغذّامي بأن العنوان بدعة حديثة يحتاج إلى مزيد بحث وتفصيل وجمع أدلة.

---

[1]- عبد الحق بلعابد، عتبات جيرارد جينيت، ص66.

[2] - المرجع نفسه، ص67.

*- دي سوسور عالم سويسري مؤسس اللسانيات، له محاضرات في اللسانيات العامة، جمعت سنة 1916م، من أبرز تلاميذه شارل بالي.

[3]- عبد الله الغذّامي، الخطيئة والتكفير، ص261.

3-3- العنوان وبناء القصيدة:

إن افتتاح الشاعر قصيدته بمقدمة ما، يعتبر سبباً في شهرة الشاعر وحذقه في الصناعة الشعرية فقد ولع العرب بتحسين المطالع والابتداء وتجويد الفواتح وحُسن الاختتام، وتلك سمات الشاعر القديم للتأثير على السامع في كل الأوقات، "فإنها المواقف التي تستعطف أسماع الحضور وتستلهم إلى الإصغاء "[1]، هذه المطالع تستلهم كما تستل الشعرة من العجين، وهي كالمفاتيح التي تحمل أسرار الكون الشعري عند الشاعر العربي ومن عالمه الخاص، فالشاعر القديم يتُوق للحرية حيث يعيش في الصحاري، يصاحب الموت والقفر والأوابد، يبوح بالحياة في أنشودة الموت، يردد الطلل والخمرة هي كلمات عنده، ولكنها مضيئة تفتح له المغاليق، "فالشعر قفل أوله مفتاحه "[2]، وإذا كانت هذه البُنى الأولية مفاتيح دالة وتحتل الصدارة وتتأرجح في أفق القصيدة الأم، فهي كعنوان مفتوح، وها هو بروكلمان يثبت لنا في كتابه تاريخ الأدب العربي تسميات بعض الشعراء لقصائدهم، التي نورد منها بعض النماذج حسب الترتيب الزمني لوفاة أصحابها:

1- القصيدة الفزارية، لأبي القاسم مُحَمَّد بن عبد الله الفزاري، (ت القرن 4هـ).

2- القصيدة المنفرجة، أو الفرج بعد الشدة، لأبي الفضل يوسف بن مُحَمَّد التوزري (ت513هـ).

3- اليتيمة، سويد بن كاهل، التي مطلعها:

بَسَطَتْ رَابِعَةُ الحَبْلَ لَنَا فَوَصَلْنَا الحَبْلَ مِنْهَا مَا اتَّسَعَ

4- قصيدة معرة البيت، لأبي الحكم عبيد الله الباهلي المرّي، (ت 549هـ).

---

[1]- القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، طبع وشرح: أحمد عارف الزين، صيدا، لبنان، 1931م، ص45.

[2]- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محي الدين عبد الحميد، نشر المكتبة التجارية، القاهرة، 1934م، ج1، ص198.

5- بستان العارفين في معرفة الدنيا والدين، لمجد الدين جمال الإسلام مُحَمَّد بن أبي بكر الوتري (ت662هـ).

6- الكواكب الدرية في مدح خير البرية (البردة)، لشرف الدين أبي عبد الله (أبي علي) مُحَمَّد بن سعيد البوصيري الصّنهاجي، (ت694 هـ).

7- الصارم القرضاب في نحر من سبّ أكارم الأصحاب، لعثمان بن سند المكي (ت 1217 هـ)"[1]، وهو عنوان طويل حيث في الفترة القديمة عُرفت التآليف بطول عناوينها.

استطاعت ظاهرة العناوين القديمة للمؤلفات أن تبرز ظواهر نقدية في نماذج عُنوانية ازدهرت وذاع صيتها، تمكنت هذه النماذج من تمييز الجديد من الرديء في نظرية الشعر عند القدماء، ونظرية الأنموذج، والتّناص والمحاورة، من هنا برزت العناوين المختصرة الموجزة مثل «دلائل الإعجاز» لعبد القاهر الجرجاني، و«نقد الشعر» لقدامة بن جعفر، و«الحيوان» للجاحظ، ثم بدأ التحول من العناوين القصيرة إلى العناوين الطويلة، مثل «الكامل في اللغة والأدب» للمبرد، و«العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده» لابن رشيق، و«منهاج البلغاء وسراج الأدباء» لحازم القرطاجني.

3-4- العنوان في النقد العربي الحديث:

إن العنوان في الخطاب العربي القديم تحدث عنه الكثير من الباحثين العرب، ذلك لأنهم تأثروا بجيرارد جينيت، وليو هوك وكلود دوشي، ومن أبرز الباحثين العرب في هذا المجال:

1- مُحَمَّد فكري جزار: وكتابه «العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي»، اهتم بالعنوان تركيباً ووظيفة.

2- الشريف حاتم بن عارف العوني: صاحب كتاب «العنوان الصحيح للكتاب».

[1]- مُحَمَّد بنيس، الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاته، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط 2، 2001م، ص103-104.

3- ناصر يعقوب: وكتابه «اللغة الشعرية وتجلياتها في الرواية العربية لدراسة العنوان على المستوى النظري والتطبيقي».

4- مُحَمَّد عويسي: وكتابه «العنوان الأدبي العربي النشأة والتطور»، 1981م.

5- جميل حمداوي: «مقاربة العنوان في الشعر العربي والمعاصر»1996، و«مقاربة النص الموازي في روايات بن سالم حميش»، وهي رسالة دكتوراه نوقشت سنة 2011.

عبد الله الغذّامي: وكتابه «الخطيئة والتكفير»، تحدث عن العنوان عند دراسته لقصيدة «يا قلب مت ظمأً» للشاعر شحاتة حمزة.

6- بسام قطّوس: في كتابه«سيمياء العنوان» نشر سنة 2003، ناقش فيه الأسس النظرية السيميائية كما درس عناوين الإبداع الشعري والمتخيل السردي.

7- مُحَمَّد مفتاح: تحدث في كتابه «دينامية النص تنظير ومجاز»، وذلك في قصيدة «القدس» لأحمد المجاطي، وهو يرى في العنوان "المحور الذي يحدد هوية القصيدة "[1]، كما أن مُحَمَّد مفتاح ينبه إلى وجود علاقات بين العناوين الموجودة في النص، والمقاطع التي تحتويها.

4- دراسة العناوين عند العمري:

يعرض العنوان نفسه على قارئه في بِنْية صغيرة من حيث عدد الدلائل، وغنيّة من حيث الدلالة، والمتلقي لا يبدأ في تلقي النص دون أن يمر على العنوان، وكتابنا هذا حوى جهاز عنواني مُكثف، حيث يحيل المتلقي الى جذور البلاغة «الأصول»، وامتداداتها «النماذج الكبرى»، وكتاب البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ذو نتاج ثقافي مشحون بثقافة وهوية عربية، ولاشك أن هذه الثقافة منحت للعنوان ميزة كبيرة.

[1]- مُحَمَّد مفتاح، دينامية النص تنظير وإنجاز، المركز الثقافي العربي، لبنان، ط3، 2006م، ص72.

فالبلاغة لغةً هي الوصول والانتهاء، يقال: بلغ فلان مراده إذا وصل إليه، و بلغ الركب المدينة إذا انتهى إليها، واصطلاحا هي وصف للكلام والمتكلم "[1]، وكأن العمري يريد أن يعرف المتلقي من أين وإلى أين وصلت البلاغة، وقد مر الحديث عن البلاغة من نشأتها إلى علو كعبها في الفصل الأول. أما الأصول: "فيقول فيها العلماء «من حُرم الأصُول حُرم الوصول» فلا يمكن أن تصل إلى العلوم إلاَ بأصولها وقواعدها "[2]، وكأن العمري يريد أن يقول للمتلقي أن للبلاغة جذور وأصول ضاربة في القِدم، الامتدادات: مصدر اِمْتَدَّ، وَقَفْنَا نُشَاهِدُ امْتِدَادَ الأُفُقِ مِنْ فَوْقِ الجَبَلِ: اِنْبِسَاطَهُ

اِمْتِدَادُ الحَبْلِ مِنْ أَقْصَاهُ إِلَى أَقْصَاهُ: طُولُهُ، اِمْتِدَادُ الحُدُودِ: تَرَامِيهَا، اِمْتِدَادُ الفَيَضَانَاتِ إِلَى القُرَى الْمُجَاوِرَةِ: اِنْتِقَالُهَا، انْتشارُهَا[3]، ومن هنا نرى ما يصبو إليه المؤلف من امتدادات للبلاغة عبر أقسامها ومراحلها.

العنوان المزيف:

تلت صفحة العنوان الرئيس la page de titre، "البلاغة العربية أصولها وامتداداتها" صفحة العنوان المزَيف في آخر صفحة من الكتاب، وقد أُرفق بنص محيط فيه ملخص للكتاب واسم صاحب الرسم Philip Taaffe ، وترجمة يسيرة لمحمد العمري.

---

[1]– مُحَمَّد بن صالح العثيمين، دروس البلاغة، مكتبة أهل الأثر، الكويت، ط1، 2004م، ص23.

[2]– ينظر: مُحَمَّد بن صالح العثيمين، شرح الأصول من علم الأصول، دار البصيرة، مصر، د ط، دت، ص14.

[3] – http://www. almaany. Com– معجم المعاني الجامع الالكتروني.

5- رسم بياني يوضح طريقة توزيع العناوين:

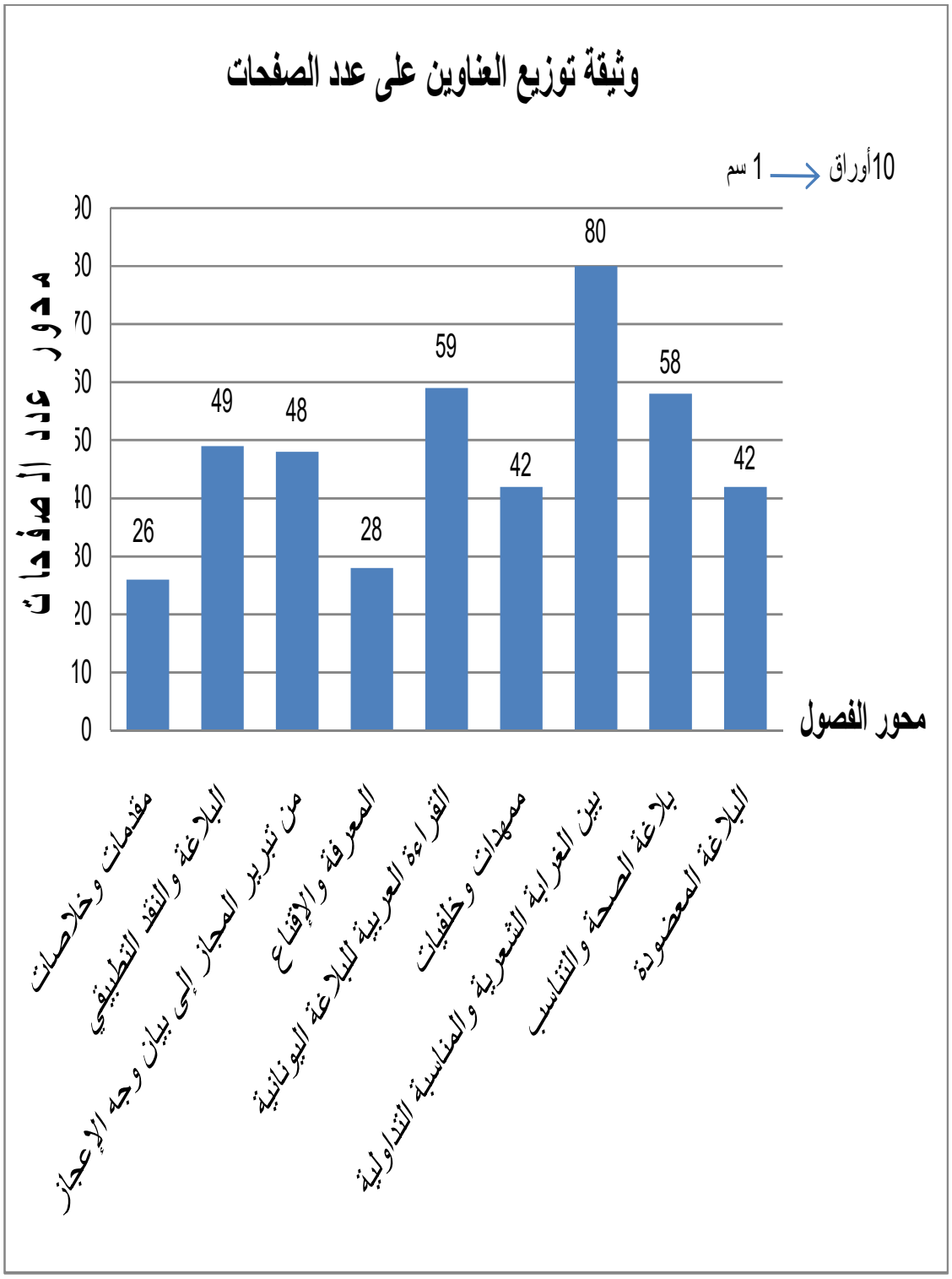

شرح الرسم البياني:

من خلال الرسم البياني أعلاه نلاحظ أن كتاب العمري تراوحت فصول كتابه بين الطول والقِصر، وفيما يلي ترتيب الفصول حسب عدد الصفحات:

الفصل1: بين الغرابة الشعرية والمناسبة التداولية، بلغت صفحاته 80 صفحة.

الفصل2: القراءة العربية للبلاغة اليونانية، بلغت صفحاته 59 صفحة.

الفصل3: بلاغة الصحة والتناسب، بلغت صفحاته 58 صفحة.

الفصل4: من تبرير المجاز إلى بيان أوجه الإعجاز، بلغت صفحاته 49 صفحة.

الفصل5: البلاغة والنقد التطبيقي، بلغت صفحاته 48 صفحة.

الفصل6: البلاغة المعضودة، بلغت صفحاته 42 صفحة.

الفصل7: المعرفة والإقناع، بلغت صفحاته 28 صفحة.

الفصل8: مقدمات وخلاصات، بلغت صفحاته 26 صفحة.

لقد عرضنا الأقسام وما حوته والفصول كذلك، حيث كان العمري موفقاً إلى حد بعيد في اختياره لعناوين مناسبة لكتابه، كما أن اختياره لم يكن صدفة، بل عبّر عن كفاءة عالية في إدارة مشروعه البلاغي، واستطاع استدراج القارئ، لتقفي مسارات البلاغة العربية عبر الأزمنة والبيئات والقضايا المختلفة.

6- الإهداء:

يعتبر الإهداء العتبة الثالثة للنص، وهو عموماً تقدير من الكاتب للآخرين سواء كانوا أشخاصاً أو مجموعات، وعادة ما يكون الإهداء للمقربين من أفراد العائلة أو الأصدقاء أو من كانوا سبباً في المساعدة على إتمام العمل، ويكون للحي والميت، كما نجد العمري يعتذر للقارئ في آخر المقدمة "وظيفة الاعتذار (l'excuse) هي من وضعيات الإهداء الثابتة، حيث نجد رولان بارت من بين الكُتّاب الذين يُكثرون من الاعتذار لقرائهم "[1]، وهذا ما كان عند العمري في «البلاغة العربية أصولها وامتداداتها»، حين طلب من القارئ التماس العذر، إلا أن الملاحظ على الكتاب هو أنه لم يتضمن الإهداء.

7- المقدمة:

المقدمة أو «خطبة الكتاب» كما هي عند العمري، تعد من العناصر التي تشد انتباهنا، كما أنها تعتبر عتبة من عتبات النص المهمة، حيث تشمل تصوّر المؤلف للكتابة وعمله في الكتاب، وهي سمّة تتميز بها العملية التأليفية والأطروحات الأكاديمية خُصوصاً، وهي كلمة يُمهّد فيها المؤلف للقارئ دخول كتابِه، فهي بشكل عام تحتوي على منهج المؤلف وأدواته الإجرائية، وهي تمثل أهدافه التي يصبو إليها، كما يتبلور دور المقدمة وأهميتها كعتبة نصّية لا تختلف عن باقي العتبات، فهي توجِّه المتلقي وتؤثر فيه، فهي تصديرٌ وافتتاحٌ للنص، ومن هنا كانت مقدمة العمري على شكل خطبة، سماها «خطبة الكتاب» وهذا لأن الكتاب بلاغي خطابي، حيث وجه كلمتين في كتابه «البلاغة العربية أصولها وامتدادتها»، وذلك في قوله: كلمة لك سواء للمتلقي المستهدف، أو إلى جميع القُرّاء على اختلاف شرائحهم، وإرسال إشارات حول الجمع بين الاتجاهين البيداغوجي والتأويلي، كما يكشف عقم الجدل حول أصل البلاغة العربية هل هي عربية أم يونانية ؟ كما يكشف أيضاً اللباس الضيق الذي حشروها فيه.

[1]- عبد الحق بلعابد، عتبات جيرارد جينيت، ص 102-103.

8- خطة الكاتب:

لقد كانت خطة العمري في «البلاغة العربية أصولها وامتداداتها» متميزة ومحكمة، فقد جعل الكتاب قسمين ومقدمات وخلاصات، قام في المقدمات برسم خطوط الطول والعرض لتاريخ البلاغة العربية، مبرزاً مسارين كبيرين: مسار بلاغة النص الخاص، ومسار النص العام، أما القسم الأول «الأصول» فقد ضمّ خمسة فصول:

أ- البلاغة ونقد الشعر.

ب- البلاغة ومعيرة اللغة.

ت- من تبرير المجاز إلى بيان الإعجاز.

ث- البلاغة والمعرفة، من البيان إلى البلاغة.

ج- القراءة العربية للبلاغة اليونانية.

هذا القسم هيمن عليه البعد التاريخي الشامل والكلي، فقد عمل العمري على إعادة قراءة تاريخ البلاغة العربية واستخراج أنساق المؤلفات في حوار بين المشاريع والمنجزات، وضمّ القسم الثاني أربعة فصول خصصها المؤلف لتحديد المسارات الكبرى للبلاغة العربية بعد أن استقلت بسؤالها الخاص وحددت موضوعاتها:

أ- مقدمات عامة، ممهدات وخلفيات.

ب- بين الغرابة الشعرية والمناسبة التداولية.

ت- بلاغة الصحة والتناسب.

ث- البلاغة المعضودة بالنحو والمنطق.

كما افتتح العمري كتابه هذا بخطبة للقارئ، بدأ فيها بالدعاء له، حيث يقول: "ضع في حسابك حفظك الله أن هذا العمل يستهدف طوائف من القراء من التلميذ في الثانوية العامة إلى الطالب في الدراسات العليا المتخصصة إلى اللساني إلى المنطقي والفيلسوف إلى المحامي المجتهد، فضلاً عن الباحث المتخصص، إلى اللساني إلى المنطقي والفيلسوف"[1]، ووجه كلمة لشخصه (كلمة لي)، وذكر معاناته في تأليفه للكتاب، وهنا يقول: "كنت كمجنون ورق وارد من القرون الخوالي، تمر الساعات تلوى الساعات في إعادة الجمل والعبارات والخطوط، حملت مخطوطة هذا الكتاب حتى كلَّ متني، وكانت الرحلة برسم كتابة مدخل، فضاع مني المخرج فوقفت لا أدري أين"[2]، وهذا من شدة ما لاقاه من المتاعب من أجل تأليف هذا الكتاب، كما بدأ خطة كتابه المفصَّلة بعد أن ذكرناها عامة وهي كالتالي:

بدأ كتابه بمدخل عام سّماه: «مقدمات وخلاصات» حيث عرّج فيه على دوافع التأريخ للبلاغة وأنها مسألة مُلِحَّة لعدة اعتبارات، اعتبار عام واقعي وتاريخي، واعتبار خاص قرائي، أي منهاجي صرف، كما ذكر مراحل الكتابة من منظور حداثي لساني، كما كشف عن الأسئلة والأجوبة للكشف عن المشاريع والمنجزات وكذلك البحث عن الأنساق ومنابت البلاغة وتربتها فبدأ بالمنابت والاكتشاف من الداخل، والاكتشاف من الخارج، كما ذكر في هذا المدخل العوامل التي ساعدت على اكتشاف البلاغة من الخارج مثل التفاعل الثقافي ودخول العنصر الأجنبي كاليوناني والفارسي والهندي، وكذلك الخلفية الدينية والنحو والمنطق، كما عرّج على المسارات الكبرى للبلاغة ويتمثل في المسار اللغوي (النص الخاص)، وذكر منجزات البلاغة العربية ومنها الشمول والعمق، ثم القسم الأول من كتابه المسمى «الأصول» ضمّ خمسة فصول:

[1] – محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص5.

[2] – المرجع نفسه، ص7.

الفصل الأول: البلاغة والنقد التطبيقي

ومهد له بتمهيد ذكر فيه تداخل البلاغة والنقد الأدبي، وكان المبحث الأول من هذا الفصل هو استكشاف المكونات البلاغية للشعر والتي تبدأ بمرحلة الهيكلة الأولية ومرحلة الصقل ثم الاحتكام، واختيار المكان، والمفاخرة بين شاعرين، ثم النظم والشرح، أما المبحث الثاني هو البلاغة والاختيار الشعري(الحماسة نموذجاً) وسبقه بتمهيد شرح فيه وضعية الكتابة التاريخية للنقد العربي القديم، وذكر الرواية والاختيار وأثر الاختيار في النقد وركز على أبي تمام.

وفي هذا المدخل كان النصيب الأوفر لنشأة البلاغة وتاريخها.

- القسم الأول: الأصول

وضمّ هذا القسم خمسة فصول: بدأه بتمهيد عنونه بتداخل البلاغة والنقد الأدبي، أما المبحث الأول جاء فيه استكشاف المكونات البلاغية للشعر مثل الصناعة والهيكلة ومرحلة الصقل والاحتكام، أما المبحث الثاني فعنونه بالبلاغة والاختيار الشعري، وضم كذلك مباحث عن عمود الشعر، المبحث الثاني: البلاغة ومعيرة اللغة، والمبحث الأول من هذا الفصل مجاز القرآن، أما المبحث الثاني الضرورة الشعرية بين العيب والمزية وذكر الخلاف بين النحاة والشعراء.

المبحث الثالث: من تبرير المجاز إلى بيان وجه الإعجاز البلاغة والنص المقدس، جاء في هذا الفصل في المبحث الأول التبرير: الدفاع عن النص القرآني، وذكر فيه ابن قتيبة والأسئلة الكلامية والجاحظ، المبحث الثاني ذكر فيه بيان وجه الإعجاز والتحدي، المبحث الرابع: المعرفة والإقناع من البيان إلى البلاغة وفيه مشروع الجاحظ وفكره، المبحث الخامس: القراءة العربية للبلاغة اليونانية: وبدأه بتمهيد وتحديد الموضوع حول الثقافة اليونانية، أما المبحث الأول فيه فن الشعر من المحاكاة إلى التغيير، المبحث الثاني فيه فن الخطابة وأهم مميزاتها وأبرز من نظّر لها من أمثال ابن رشد والفارابي.

القسم الثاني: الامتدادات أو النماذج الكبرى، وضمّ أربعة فصول:

الفصل الأول: مقدمات عامة، ممهدات وخلفيات: هذا المبحث ذكر فيه العمري المحاولات الأولى لبناء بلاغة عامة قبل القرن الخامس، وبدأ بكتاب الصناعتين: الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري الذي يُعد حسب العمري "أول محاولة لقراءة أعمال البلاغيين العرب الرواد قراءة شاملة تستهدف الخروج بصيغة عامة تجمع المتفرق"[1]، كما عرج على وظيفة البلاغة، وذكر قولاً يُستأنس به لأبي هلال العسكري، الذي يرى أن أولى العلوم بالتعلم بعد معرفة الله، علم البلاغة ومعرفة الفصاحة، كما ذكر العمري الملامح الأولى للبلاغة ومكوناتها، المبحث الثاني: الخلفيات المذهبية للمشاريع البلاغية، البلاغة وطبيعة الكلام، وذكر فيه قضية الخلاف حول كلام الله تعالى عند الفرق الكلامية، وموقف أهل السنة من هذه المسألة التي تثبت الكلام لله عكس فرق أخرى.

الفصل الثاني: بين الغرابة الشعرية والمناسبة التداولية، في المبحث الأول من هذا الفصل ركّز في هذا الفصل على عمل عبد القاهر الجرجاني، في كتابه أسرار البلاغة، وذكر المجاز بأقسامه أما المبحث الثاني جاء فيه الثوابت والمنجزات الأساسية لبلاغة الجرجاني وهذا المبحث تبعاً للفصل الأول، وذكر فيه التأويل وبَيَّنَ ماهيته وأهم ما جاء فيه.

الفصل الثالث: بلاغة الصحة والتناسب، بدأ العمري هذا الفصل بتمهيد حول عمل ابن سنان الخفاجي، وفي المبحث الأول ذكر مشروعه، وذكر الفصاحة وأنواعها، أما المبحث الثالث فذكر فيه الرؤية البلاغية في المنجز الصحة والتناسب.

الفصل الرابع: البلاغة المعضودة بالنحو والنطق، المبحث الأول من علم الأدب إلى البلاغة والمبحث الثاني البلاغة النقدية أو النقد البلاغي، وفيه قراءة في منهاج البلغاء لحازم القرطاجني أما الفصل الثاني فسمّاه البلاغة ومعيرة اللغة وبدأه بمدخل عام: النص والمعيار الذي اهتم بلم

[1]– محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 283

شتات اللغة، والمبحث الأول من هذا الفصل هو مجاز القرآن، والمبحث الثاني تحدث فيه عن الضرورة الشعرية بين العيب والمزية، أما الفصل الثالث سماه: من تبرير المجاز إلى بيان وجه الإعجاز (البلاغة والنص المقدس) وضمّ المبحث الأول وعنونه بالتبرير: الدفاع عن النص القرآني وعرّج على نصوص الجاحظ حول التنزيه والمزية، أما المبحث الثاني بيان وجه الإعجاز وفيه ذكر وجه التحدي.

الفصل الرابع: المعرفة والإقناع من البيان إلى البلاغة، وفيه قراءة في مشروع بيان الجاحظ، والمحتوى الفكري له، والبيان ما بعده.

الفصل الخامس: القراءة العربية للبلاغة اليونانية، وبدأ فيه بتمهيد حول تحديد الموضوع، والمبحث الأول سماه فن الشعر من المحاكاة إلى التغيير، والمبحث الثاني فن الخطابة: الصحة والاعتدال.

القسم الثاني: والذي يمثل الامتدادات أو النماذج الكبرى، وبدأه بتمهيد.

الفصل الأول: وفيه مقدمات عامة ممهدات وخلفيات، فالمبحث الأول من هذا الفصل هو: المحاولات الأولى لبناء بلاغة عامة قبل القرن الخامس أما المبحث الثاني فسمّاه: الخلفيات المذهبية للمشاريع البلاغية البلاغة وطبيعة الكلام.

الفصل الثاني: الغرابة الشعرية والمناسبة التداولية، وتعرض في المبحث الأول والمسمى التحولات خطاطة الأسرار والدلائل، أما المبحث الثاني سماه: الثوابت والمنجزات الأساسية.

الفصل الثالث: بلاغة الصحة والتناسب بدأه بتمهيد حول عمل ابن سنان والخلفية المذهبية والمبحث الأول اسمه المشروع والمنجز من الأصوات إلى المعاني، أما المبحث الثاني الرؤية البلاغية في المنجز الصحة والتناسب ومهّد فيه لبلاغة ابن سنان الخفاجي.

الفصل الرابع: البلاغة المعضودة بالنحو والنطق

وجاء فيه المبحث الأول المسمى من علم الأدب إلى البلاغة، أما المبحث الثاني البلاغة النقدية أو النقد البلاغي وهو قراءة في منهاج البلغاء، ثم ختم كتابه بخطته التي أراد أن تكون بملحق وكان مكملاً لما سبق حول قسم مفقود في محاولة البناء في «المنهاج» لحازم.

9- عتبة الخاتمة:

إن أهمية المقدمة والخاتمة من أهم مظاهر العتبات عند علماء العرب القدامى والمعاصرين "لما لها من خصوصيات مميّزة، ولارتباطها بأصول دينية تطورت فيما بعد لتأخذ أبعاداً فنية وبلاغية شملت إلى جانب النص القرآني كل أصناف الخطابات، فقد تقرر أن لكل عمل يجب أن يفتتح بالبسملة ويختتم بالحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع التنصيص على ما قد يتلو الكاتب أو المصنف إن كان متعدد الأجزاء واشترطوا في الخاتمة أن تكون حسنة بليغة هادفة لأنها آخر ما يعلق بالأسماع "[1]، من هنا تبدو أهمية الخاتمة في الكتاب، فقد عني بها القدماء والمتأخرون، إلاّ أن الملاحظ في كتاب العمري أنه لم يرفق هذا الكتاب بخاتمة، وهذا لعدة أسباب منها: أن المشروع لم يكتمل وما زال فيه مساحة لاستئناف القول، وقد توقع العمري وجود ثغرات في بحثه البلاغي ،وأن باب التأويل فيه يبقى مفتوحاً، كما أن العمري تمنى في النهاية لو أنه أضاف التوحيدي في مشروعه وهذا دليل أن عدم وجود الخاتمة في كتابه عمل مؤسس ومضبوط، كما أن خُلو الكتاب من الخاتمة ربما فتح الباب لطبعات أخرى منقحة ومزيدة.

وبعد قراءتنا للعتبات النصية، سننتقل إلى قراءة في المشروع البلاغي للعمري في ضوء النظريات الجديدة مثل التداولية والحجاج والبنيوية.

1- عبد الرزاق بلال، مدخل إلى عتبات النص دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، تق: إدريس نقوري، أفريقيا الشرق، المغرب، 2000م، ص[1]28.

المبحث الأول: دواعي التجديد واتجاهاته

تمهيد:

شهدت الفترة الممتدة من القرن العاشر إلى أواسط القرن الرابع عشر العديد من الأحداث السياسية على الساحة العربية والإسلامية، ومن أبرزها الخلافة العثمانية التي أحكمت قبضتها على البلاد العربية، وذلك ما أثّر سلباً على الحياة الأدبية في تلك الحقبة الزمنية، ومن هنا يذهب حافظ إسماعيل العلوي إلى تفسير" ذلك الانحطاط على المستوى اللغوي خصوصاً، بإدراك العثمانيين للعروة الوثقى بين العربي ولغته وأهمية الوازع الديني في تعزيزها وتوثيقها، كما يمكن أن نفسر ذلك شعور الأتراك بضعف لغتهم مقارنة باللغة العربية، وهذا ما حدا بهم إلى إيجاد عزائل ساترة بين العرب ولغتهم ظهر أبرزها في غياب وسائل التعليم وندرة الكتب ما أسهم في قطع أواصر العلاقة الروحية بين العربي وتراثه "[1]، كل هذا كان سبباً مباشراً في تأخر التعليم ونقص التآليف في شتى المجالات، هذا هو الواقع الذي عرفه العرب وألقى بظلاله على الإنتاج العلمي اللغوي.

1- دواعي التجديد:

يشير جورجي زيدان إلى التأخر الذي ألمّ بالعربية وعلومها حيث يقول: "رغم كون العربية لغة الدّين في العالم الإسلامي، والمطالعة فيها أمر عقدي لا مناص منه في جميع العصور والعهود، إلاّ أنّ ذلك الملل تمكن من النفوس وقتها وفسدت ملكة اللسان وجمدت القرائح "[2]، وفي مرحلة من مراحل الحضارة العربية عرفت تقدماً في التأليف مما جعل بعض "المفكرين أن يطلقوا على هذا العصر عصر الشروح والحواشي، كما أطلقوا على عصر المغول عصر الموسوعات والمجاميع "[3].

---

[1]- حافظ إسماعيل العلوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط1، 2009م، ص46.

[2]- جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مراجعة وتعليق شوقي ضيف، دار الهلال، مصر، دط، دت، ج3، ص291.

[3]- المرجع نفسه، ص 292.

هذه الشروح ساعدت على الجمود وتراجع البلاغة "حتى صارت كتب البيان أشبه بالمعميات والألغاز، ورأى أن من أثر فساد ذوق اللغة اختيار هذه الكتب «الشروح»، حتى صارت «حواشي السعد» أي التفتازاني، تطبع وتنسخ وكادت كتب عبد القاهر تمحى وتنسى "[1]، وهذا يشير أيما إشارة إلى الضعف الذي وصلت إليه البلاغة العربية.

كما نجد أمين الخولي يشخّص قضية علوم العربية إلى ما قبل عصر الضعف أي قبل عصر الشروح والحواشي، وأن العربية أصابتها عزلة تامة بعد القرون الثلاثة، ونتج عنه "أن البلاغة العربية حينما جُعِلَت درساً تعليمياً يُمارس ويُزاول بطرق مدرسية منظمة كانت ظروفه تقتضي عليه بإيثار منهج تعليمي وأسلوب بحث مدرسي له صفة واضحة معينة، هي الاتجاه إلى الناحية النظرية التعليمية التي تعتمد على الضبط العقلي والقواعد المطردة، والحدود الضابطة وما إلى ذلك، الأمر الذي يتحقق معه في سهولة كثيرة، من الغرض الأدبي العلمي، الذي يراد من تعلم اللغة ومعرفة أدبها وفنّها القولي فالحالة الاجتماعية كانت تدفع إلى هذا المنهج "[2]، هذه الظروف ساعدت على النهوض بالفكر العربي وتطلعت الأمة العربية إلى النهضة، وبدأت حركة التأليف المعجمي والتأليف التيسيري، والتأليف النقدي، كما صيغت المناهج التربوية والتعليمية لهذا الغرض.

2- البلاغة وبداية التجديد:

بدأت عمليات البحث عن التراث العلمي منذ عصر النهضة والإحياء، أما التنبه لبلاغة الغرب في هذه الفترة عصر النهضة والإحياء، فإننا نجد أثره عند الطهطاوي (ت 1290هـ) في «تلخيص الإبريز» "[3]، والذي بيّن اهتمام الغرب بالبلاغة وأن لها اسماً هو: الريثوريقي، وكذلك ما كتبه المراغي (ت 1370هـ) في علوم البلاغة "[4]، وفي هذا الصدد يقول أحمد مطلوب أن الأزهر الشريف كان أول من حمل لواء التجديد في البلاغة العربية بعد "أن قيّض الله له الأستاذ الإمام الشيخ مُحَمَّد عبده

[1]- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: مُحَمَّد رشيد رضا، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1933م، ص (د).

[2]- أمين الخولي، فن القول، دار الفكر العربي، القاهرة، 1947م، ص70.

[3]- الطهطاوي، تلخيص بارز، موفم للنشر، الجزائر، 1991م، ص359.

[4]- أحمد مصطفى المرّاغي، علوم البلاغة، المكتبة البصرية، صيدا بيروت، 2005م. .

الذي أخذ يُحيي كتب السلف وعلومهم...فقد درّس كتابي دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني "[1]، هذا الشاهد الذي أورده أحمد مطلوب يبين مكانة مُحَمَّد عبده وسبقه في إعادة الاعتبار لمؤلفات عبد القاهر الجرجاني خاصة «الأسرار والدلائل».

ومن الباحثين الأوائل الذين دعوا إلى تجديد البلاغة العربية "أحمد ضيف" 1880-1945م وكتابه «مقدمة لدراسة بلاغة العرب»، حيث خصّ البلاغة بتعريف مغاير للقدماء، ورأى أن البلاغة هي: "كل قول الغرض منه قبل كل شيء الاستيلاء على نفس السامع أو القارئ بفصاحة العبارة وبحسن التركيب وبراعة الكاتب أو الشاعر، أو هي الكلام الفنّي الممتع، والكلام الفنّي يملأ نفس السامع وعواطفه في أي موضوع كان وعلى أي معنى دل"[2]، وهذا التعريف الذي أتى به ضيف لم يكن معهوداً من قبل.

كما يرى ضيف البلاغة "أنها فن من الفنون الجميلة مثل الموسيقى، والغرض منها تهذيب النفس، وترقيق العواطف، وتقوية الملاحظة، فهي مسلاة النفوس، وأنيس الجليس، فعلى هذا فهي ضرب من الكمال، أما من جهة أنها عرض عام للحياة، وجعبة لأفكار الإنسان، ومسرح لآراء الفلسفة والإنسان، فهي شيء من الضروريات لتربية الأفكار وتهذيبها "[3]، ثم جاء تأليف آخر لعلي الجارم ومصطفى أمين «البلاغة الواضحة»، وأرادا أن يعودا بالبلاغة إلى ما كانت عليه في الزمن القديم، تلك البلاغة التي هجرها العلماء منذ زمن السكّاكي حيث يقولان: "وأملنا أن يكون لعملنا هذا شأن في إحياء الأدب، وتوجيه أذهان المعلمين والطلاب إلى هذه الطريقة التي هي دراسة البلاغة ولعلنا نكون قد وفقنا إلى ما قصدنا إليه، والله خير مستعان "[4]، وقد اتجه مؤلفهما إلى الجانب التعليمي حيث لم يخل منبر تعليمي إلاّ وكانت «البلاغة الواضحة» حاضرة.

---

[1]– أحمد مطلوب، القزويني وشروح التلخيص، مكتبه النهضة، بغداد،ط1، 1967م، ص12.

[2]– أحمد ضيف، مقدمة لدراسة بلاغة العرب، مطبعة السفور، القاهرة، ط1، 1925م، ص25.

[3]– المرجع نفسه، ص27.

[4]– علي الجارم – مصطفى أمين، البلاغة الواضحة (المعاني، البيان، البديع)، دار المعارف، مصر، دط، دت، ص3.

والكتاب فيه تسهيل البلاغة للمتأخرين على طريقة المتقدمين، وفي هذا المقام يقولان عن تعريف البلاغة: "تأدية المعنى الجليل واضحا بعبارة صريحة فصيحة، لها في النفس أثر خلاّب مع ملائمة كل كلام للموطن الذي يقولون فيه، والأشخاص الذين يخاطبون به"[1]، وهو تعريف يشبه تعريف الأوائل مثل تعريف الرماني للبلاغة الذي يقول بأنها: "إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"[2] أي الوصول بالفكرة إلى ذهن المخاطب باستخدام أفضل العبارات.

وقد لقي كتاب "البلاغة الواضحة" اهتمام الدارسين المعاصرين أمثال أحمد مطلوب الذي قال: "ومن أهم الكتب المتداولة «البلاغة الواضحة» للأستاذين علي الجارم ومصطفى أمين، وهذا الكتاب حلقة انتقال بالبلاغة من طابعها القديم المعتمد على تقرير القواعد وحفظ القوالب إلى الاهتمام بالتحليل، وقد اتبع المؤلفان أسلوباً تربوياً جديداً يقوم على ذكر الأمثلة واستنباط القواعد وشرحها ولعل أهم ما يمتاز به كتابه البحث في الأسلوب، وهو بحث جديد في البلاغة التي لم تخرج على ما خطّه السكاّكي وقرّره القزويني"[3]، وقد كان بالفعل هذا الكتاب مادة علمية لم تخرج على خط الأوائل ولم تُغفل الجديد كالبحث في الأسلوب.

أما بدوي طبانة يقول عن الكتاب: "ومن أنفس كتب هذه المدرسة في القرن العشرين كتاب «البلاغة الواضحة» الذي ألّفه الأستاذان أمين وعلي الجارم"[4]، وهو بالفعل كتاب نفيس ولا يزال يُدَرَّس به لحد الساعة في الثانويات والجامعات.

وتميّزت هذه المرحلة بتوالي المؤلفات البلاغية، مثل كتاب «الأسلوب» لأحمد الشايب الذي يقول: "إنّ الدراسة النظرية البلاغية العربية انتهت عند المتقدمين إلى علوم المعاني والبيان والبديع يدرسون في الأول الجملة متصلة أم منفصلة، ويدرسون في الأخير الصور بسيطة أو مركبة، من تشبيه

---

[1]– علي الجارم – مصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص8.

[2]– الرماني أبو الحسن، النكت، ثلاث رسائل في الإعجاز، تح: مُحَمَّد خلف الله ومُحَمَّد خليل سلام، دار المعارف، مصر، ط2، 1968م، ص14.

[3]– أحمد مطلوب، مناهج بلاغية، الكويت، ط1، ص 355 وما بعدها.

[4]– بدوي طبانة، علم البيان (دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى)، دار الثقافة، بيروت، ط5، 1976م، ص281.

ومجاز وكناية وحسن تعليل، مع توابع أخرى في علم البديع"[1]، وهي مرحلة الازدهار والرقي بالنسبة للدرس البلاغي.

وحاول هذا الكتاب تقديم وضع جديد للبلاغة "يُلائم ما انتهت إليه الحركة الأدبية في ناحيتها العلمية والإنشائية، ويراه بدوي طبانة:" أول محاولة إيجابية في سبيل بعث البلاغة العربية والبحث في مجالاتها، وما يمكن أن تتسع له، وما ينبغي أن تجاوزه، وكان كتاب «الأسلوب» ثمرة خبرة عميقة وتجربة طويلة في درس البلاغة وقد درّسها لطلاب كلية الآداب ودار العلوم، واطّلاع واسع على مراجعها العربية وما كتب حولها في بعض اللغات الأجنبية "[2].

كما ظهرت أصوات تنادي إلى نبذ القديم والهجوم عليه، تمثل هذا الهجوم في مقال لعبد العزيز البشري، حيث يقول: "أنه مادامت للبلاغة علوم مقررة ومعارف واضحة، وقواعد مفصلة مقسومة وقضايا محددة مرسومة فقد أصبح من السهل اليسير على كل من يجيد عملها، ويحذق فهمها أن يجيء بالبليغ من القول إذا نظم أو نثر، بل لتهيأ له أن يجيء بأبلغ الكلام، بل ربما ينتهي منه إلى حدود الإعجاز، وقواعد البلاغة تشير بأوضح الإشارة إليه، وتدل بأفصح العبارة عليه"[3]، ولكن هذا الهجوم العنيف على البلاغة انبرى له شلة من العلماء.

في هذا الباب نحاول رصد الاتجاهات التجديدية التي حاولت النهوض بالبلاغة العربية من الجمود والصنّمية، وفي تحقيقنا لمفهوم البلاغة الجديدة، حاولنا رصد التطور التاريخي للبلاغة حتى نتمكن من تحديد المفاهيم، والخلفيات النظرية، والآليات التطبيقية، والمصادر التي حقّقت الدراسات المعاصرة وجعلتها تعيد النظر في البلاغة العربية.

---

[1]– أحمد الشايب، الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية)، مكتبة النهضة مصر، ط5، دت، ص3.

[2]– بدوي طبانة، البيان العربي، ص305.

[3] – عبد العزيز البشري، ثورة على علوم البلاغة، محاضرة ألقيت في الجامعة الأمريكية بالقاهرة خص بها البشري مجلة الهلال، يناير 1937م، ص265.

وقد تدعّم هذا المنحى بدراسات قيّمة مثل دراسة هنريش بليث بعنوان: «البلاغة والأسلوبية»[1] أعاد فيها إلى الواجهة البعد التداولي الحجاجّي للبلاغة القديمة، "هذا البعد الذي تفتقده الأسلوبية الحديثة"[2]، وهذا ما نجده عند التيار الجديد الذي يهدف إلى الاستفادة من الأسلوبية، والشعرية مع التداولية، ومباحث الحجاج لمقاربة الخطاب وتحليله، ثم جاءت مرحلة كانت الدراسات العربية المعاصرة على اتصال بالتيار التداولي، ودخل مفهوم الحجاج والإقناع والخطاب التأثيري، وغيرها من المفاهيم.

فعبد الله صولة (ت 1430هـ) يعترف بأن البلاغة الجديدة بلاغات، فحصر البلاغة الجديدة في الحجاج يُنقص من فعاليات أقطاب كثيرة كالفعالية التأويلية والشعرية، وسيكون في بحثنا هذا كشفٌ للعلاقة بين الدرس البلاغي العربي القديم، في ضوء مباحث البلاغة الجديدة، ويذكر مُحَمَّد مشبال "بأنّ المنجزات الشكلانية والدراسات الأسلوبية لا يمكن أن تحل محل البلاغة، بل تُعتبر داخلة في دائرة البلاغات المتشكلة على مدى تاريخ الإنسانية"[3]، كما يضيف مُحَمَّد مشبال في هذا السياق: "فالبلاغة كما يرى معظم المفكرين البلاغيّين المعاصرين ماثلة في كل النصوص، بل إنها مكون طبيعي في إشكال التواصل الإنساني...هذا هو موضوع البلاغة، الذي قد يتجسد أحيانا في مجموعة من البنيات الاقناعية «البلاغة الحجاجية» وأحيانا في مجموعة من الصوّر، والوجوه الأسلوبية ذات الوظيفة التحسينية «بلاغة المحسنات»، وأحيانا أخرى قد يتجسد في مجموعة من الصيغ التعبيرية والتصويرية التي تفرزها مختلف الأجناس والأنواع والأشكال والنصوص الأدبية...«البلاغة الأدبية»"[4] فالتواصل الإنساني هو موضوع البلاغة بمجموع مكوناتها الحجاجية والأسلوبية والتعبيرية والتصويرية.

---

[1]– هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، تر: مُحَمَّد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، بيروت، لبنان، 1999م.

[2]– مُحَمَّد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، أفريقيا الشرق، المغرب، الدار البيضاء، ط1، 2013م، ص31.

[3]– مُحَمَّد مشبال، البلاغة والأصول، أفريقيا الشرق، المغرب، 2007م، ص7.

[4] – المرجع نفسه، ص8.

3- اتجاهات التجديد:

ومن أجل النهوض بالمشروع البلاغي وفهم البلاغة العربية في العصر الحديث والمعاصر ظهرت اتجاهات مختلفة أبرزها المنهج النفسي والأدبي والتربوي والبلاغي.

3-1- الاتجاه النفسي:

وأبرز من يمثله أحمد حسن الزيات في كتابه «دفاع عن البلاغة»، كما تأثر أمين الخولي بالمنهج النفسي وذلك من خلال موقفه من البلاغة القديمة "وأرجع العوامل التي تضافرت في بناء صرح البلاغة العربية إلى عامل المدرستين: المدرسة الكلامية والمدرسة الأدبية"[1]، وكما هو معروف أن أحمد الزيات يرفض أن تدخل البلاغة مجال التعليمية.

ومن الأصوات التي نادت بالاعتماد على علم النفس في تنمية الدرس البلاغي أحمد المرّاغي وكتابه «علوم البلاغة» الذي دعا فيه إلى تطبيق العلم على عمل البلاغة، ومن خلال الاهتمام بقواعد علم النفس تعويداً للناظر الركون إلى الوجدان والحس"[2]، فالمراغي يطلب اعتماد الجانب النفسي في العمل البلاغي.

وكذلك يذهب مُحَمَّد مندور إلى دراسة الأدب باعتماد علم النفس، حيث يقول: ينبغي أن يكون من خلال درس الأدب وما فيه من ظواهر نفسية، وأن يكون كالضوء الداخلي الذي يشع من نفس الناقد فيعينه على استخلاص أصالة الأديب الخاصة، ولكن من غير إقحام لهذه المعرفة على الأدب ونقده، لأن الأدب منبع لكل تلك المعارف"[3]، إذن الظواهر النفسية منبع للناقد لاستخلاص الأدب وغيره من الفنون.

---

[1]- أمين الخولي، فن القول، ص259.

[2]- أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، ص11.

[3]- مُحَمَّد مندور، النقد والنقاد المعاصرون، مكتبة نهضة مصر، دط، دت، ص104.

3-2- الاتجاه الأدبي:

هدف هذا الاتجاه هو توثيق الصلة بين الأدب والبلاغة من خلال العودة إلى حياة البلاغة العربية، ويمثل هذا الاتجاه سلامة موسى في كتابه «البلاغة العصرية واللغة العربية»، ويمثله أيضا أحمد الزيات في كتابه «دفاع عن البلاغة»، حيث يقول "مزج التراث البلاغي ودرس النقد العربي بما يدل على استيعاب التراث البلاغي لكل جديد وعلى ملاءمته روح العصر، وبما يظهر مدى قيمته بالنسبة للحياة وامتزاجها بالمجتمع "[1]، هذا التعالق بين ما هو بلاغي وما هو نقدي هو الذي يعطي قيمة للحياة، كما نجد ذلك عند أحمد الشايب الذي "نادى بتنقية البلاغة من أنواع الفلسفة وطابع الجدل وأن يتجه بها إلى دراسة الأساليب وخصائصها وربطها بالأدب وغيره "[2]، وهذا رأي يدعو إلى فصل الفلسفة عن البلاغة.

وكتاب مصطفى أمين وعلي الجارم «البلاغة الواضحة» "الذي جمعا فيه بين النصوص الأدبية الجيدة والمتنوعة والقاعدة الموجزة الواضحة على منهج المتأخرين في تقسيم البلاغة إلى معان وبيان وبديع"[3]، هو كتاب أخذ حيزاً كبيراً في المنهاج الدراسي، وذلك لما يتميز به من حسن التقسيم، درجا فيه صاحباه على طريقة المتأخرين، كما نجد مصطفى الصاوي الجويني الذي دعا إلى "الاهتمام بالنص الأدبي وكثرة المدارسة والحفظ للنصوص القرآنية والأحاديث النبوية، وفي محاولته التجديدية نادى باستبعاد الجانب الفلسفي من العلوم الثلاثة: المعاني، والبيان، و البديع"[4]، والجويني يسير على طريقة الأولين في طريقة حفظ العلم والمدارسة كحفظ القرآن الكريم والسنّة النبوية، كما دعا إلى تخليص البلاغة من الفلسفة.

---

[1]-أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، ص14.

[2]- أحمد الشايب، الأسلوب، ص12.

[3]- مصطفى أمين- على الجارم، البلاغة الواضحة، ص78.

[4]- مصطفى الصاوي الجويني، البلاغة العربية "تأصيل وتجديد"، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1985م، ص5.

3-3- الاتجاه التربوي:

تبنّى هذا الاتجاه علماء التربية الذين يولون أهمية لمناهج التعليم، ومن أبرزهم عبد العليم إبراهيم من خلال كتابه «الموجه الفني»، يقول: "لا يعنينا أن نرتد بالقديم إلى القرون الأولى التي نشأت فيه البلاغة ولكننا نقتصر في بحث أسلوب تدريس البلاغة على التعليم المدرسي في العصر الحديث، أما طابع المدرسية القديمة فهو تمزيق وحدة البلاغة، وجعلها علوماً ثلاثة، تُعرف بعلوم المعاني والبيان والبديع، ومن الغريب أن دراسة المعاني كانت تسبق دراسة البيان والبديع، وهذا يعارض القاعدة التربوية التي تقضي بالانتقال من السهل إلى الصعب، ولاشك أن المعاني أصعب العلوم الثلاثة. وكذلك تدريس البلاغة في عزلة عن الأدب "[1]، وهذا تقريباً الذي تسير عليه المناهج التعليمية المعاصرة في الثانويات والجامعات.

3-4- الاتجاه البلاغي: يحاول أصحاب هذا الاتجاه تجديد البلاغة بالبلاغة، من هم فتحي فريد ومُحَمَّد أبو موسى، وقد فشل هؤلاء في تحقيق مآربهم، يقول طه إبراهيم: "إذ غلب نقاد التراث التوسل بأدوات البحث التي اصطنعها المحدثون من مفاهيم ومناهج ونظريات، معتقدين أنهم بهذا التقليد قد استوفوا شرائط النظر العلمي الصحيح، أو لم يدروا أنه ليس كل ما نقل عن المحدثين بأولى بالثقة مما نُقل عن المتقدمين"[2]، فهو بذلك يدعو إلى عدم التقليد باستخدام مناهج ونظريات المحدثين، والتي قد لا تستوفي الأسس العلمية في دراسة التراث.

وما يمكن قوله هو أن جهود البلاغيين تبقى مجرد محاولات للربط والتوفيق، ولم يكن هناك تجديدٌ بمعناه الحقيقي.

[1]- عبد العليم إبراهيم، الموجه الفني لمدرسي اللغة العربية، دار المعارف، مصر، ط4، ص305.

[2]- عبد الرحمن طه، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط4، 2012م، ص10.

المبحث الثاني: قراءة المعاصرين للبلاغة العربية

لقد عادت الروح إلى البلاغة العربية عندما حاول هؤلاء الدارسون أن يجعلوا من البلاغة الغربية بلاغة عامة، كما استطاع هؤلاء الباحثون أن يجعلوا من البلاغة علماً مستقلاً وحديثاً، ومن تجديد الدرس البلاغي الغربي امتد هذا النشاط إلى الدرس البلاغي العربي، فظهر من البلاغيّين المعاصرين من نهض بإعادة قراءة البلاغة العربية على ضوء المنجزات التي حققها نظراؤهم في الغرب، وقد تجسّد ذلك في أعمال حمادي صمود، ونصر حامد أبو زيد، وجابر عصفور ومُحَمَّد مفتاح ومُحَمَّد العمري ومُحَمَّد أنقار ومُحَمَّد مشبال، وغيرهم ممّن صرفوا جهودهم إلى تجديد الدرس البلاغي العربي، وتكسير أغلال التقليد التي طوقته بها «شروح المفتاح»، ثم «شروح شروح المفتاح» وتلخيصاته، مما رسّخته المؤلفات المدرسية فيما بعد، مع علي الجارم ومصطفى المراغي، وأحمد الهاشمي وعبد العزيز عتيق وبلاغيين معاصرين من أمثال أمين الخولي، ومُحَمَّد مشبال، وشوقي ضيف.

1- جهود أمين الخولي في تجديد البلاغة العربية:

تعتبر جهود أمين الخولي في عملية تجديد البلاغة رائدة في زمانها "وقد قامت محاولات جادة في هذا العصر لإعادة الحياة إلى البلاغة، وربطها بالأدب الحديث، ولكن تلك المحاولات لم تُثمر كثيراً لأنها لم تُكمل ما بدأه السابقون، وإنما انصرفت إلى وضع المناهج من غير أن تمس الموضوعات أو تُحاول بعثها من جديد، ولعل من أسباب ذلك أن بعض أصحاب تلك المحاولات لم يتعمقوا درسها وكان المرحوم أمين الخولي أقدرهم بالنهوض بالبلاغة"[1].

لذا قطعت البلاغة العربية "مراحلاً وأشواطاً مختلفة، وانتقلت بين العلماء من جيل إلى جيل حتى استوت على سوقها، وتحدَّدت معالمها "[2]، وهكذا مر الدرس البلاغي بفترات متلاحقة وبعلماء مختلفين، كل هذا ساعد البلاغة على النمو والانتقال من مرحلة الضعف إلى الازدهار.

---

[1]- أحمد مطلوب – حسن بصير، البلاغة والتطبيق، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ط2، 1999م، ص3.

[2]- بن عيسى بالطاهر، الدرس الصوتي في التراث البلاغي وتيسير البلاغة في كتب التراث، مجلة اللغة العربية الأردني، الأردن، ع68 2005م، ص30.

وفي هذا الصدد يشير بن عيسى بالطاهر إلى ما آلت إليه البلاغة العربية، حيث "وصلت إلى مرحلة النضوج و الازدهار التي أضافت إلى علم البلاغة نظرات جليلة، ونظريات جديدة كان لها الفضل في تأسيس هذا العلم وصياغته وتطوره مضمونًا ومنهجًا وأسلوباً، ومثَّل هذه المرحلة خير تمثيل عبد القاهر الجرجاني(ت471هـ)"[1]، فكان هذا العالم الجليل بحق رجل هذه المرحلة التي تميزت بالتأسيس لهذا العلم الشريف.

فما إن جاء القرن السادس الهجري حتى تحوَّلت البلاغة إلى قواعد، وصيغ مضبوطة ومحكمة فقد أفرد السكّاكي القسم الثالث من كتابه «مفتاح العلوم» لما يتعلَّق بفنون البلاغة، واتخذ منهجاً علمياً دقيقاً في تبويبها وبَحْثِ موضوعاتها[2]، وصار كتابه الصورة النهائية التي "جمدت عليها علوم البلاغة العربية[3]، بَقي منهج السَّكاكي سائداً إلى يومنا هذا، فقد سار العلماء والمفكرون المعاصرون على خطاه في تقسيم البلاغة وتحديد مصطلحاتها فأضحت البلاغة تدرَّس على أسس علمية صارمة لا تختلف كثيراً عن علمي النحو واللغة، فَقُيِّدت مصطلحاتها وحُدِّدت ملامحها الأدبية [4].

حاول الخولي إعادة البلاغة العربية إلى رحاب الدرس الأدبي؛ ليجعل منها فناً جميلاً، ، حيث عمل على ازدهار البلاغة، ومن أهم آرائه في تجديد البلاغة العربية هي: "من حيث إخضاع البلاغة للمنهج الأدبي الفني في الدراسة، يكفي أَن نُحيي منهج بحث رسوم المدرسة الأَدبية الأُولى وآثارها وكتبها، وبهذا نحتكم إلى كل ما في دراسة الفنون من أساليب مجرَّبة ومناهج مُستحدَثة، ونهمل بتاتاً تلك الدراسة الفلسفية المستعجمة، إلغاء التقسيم الثلاثي لعلوم البلاغة العربية، والتحْلية بتوسيع دائرة

---

[1]– بن عيسى بالطاهر، الدرس الصوتي في التراث البلاغي، ص30.

[2]– ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص288.

[3]– ينظر: أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية، ج2، ص414–423.

[4]– ينظر: أمين الخولي، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، دار المعرفة، ط1، 1961م، ص266.

البحث وبسط أُفقِه فلا يقتصر على الجملة، وإنَّما مدّ البحث إلى الفقرة الأَدبية ثم القطعة الكاملة من الشعر والنثر[1]، هذا هو رأي الخولي وخطته في تجديد البلاغة، وقد عدَّت جهوده في كتابه (فن القول) "توجيهاً منهجياً شاملاً لبحث البلاغة وخلق مدرسة جديدة"[2]، إلاّ أنَّه آخذ عليها إدخالها بعض صور الفنون البلاغية منها: التشبيه، والاستعارة، والكناية، والتجريد، والقلب وأسلوب الحكيم، والمبالغة وتأكيد المدح بما يشبه الذم، والتدبيج والتهييج والإلهاب، والتهكم والفكاهة والتجاهل، والإيضاح المعلن ليس موضع هذه الفنون[3]، لأن كثيراً منها ولاسيما التشبيه إيضاح والاستعارة والكناية وأسلوب الحكيم من التخييل، وليس في التمثيل إيضاح معلن وإنَّما هو تصور يعتمد على المتلقي، وقد يكون عنده إيضاحاً وقد يكون عنده إبهاماً، ولا تخرج الفنون الأخرى عن التصور والتخييل وصور التعبير المظللة أولى بها، لأن الرمز والإيماء من الكناية كما ذهب إليه القدماء ومثل ذلك الألغاز والتورية[4].

إنَّ رأي الخولي في تجديد البلاغة العربية رأي قديم في مادته جديد في منهجه، فهو لم يغفل القديم تماماً، ولم يكتفِ بالجديد وحده. وإنَّما كان التلاقي بين الطرفين أساس الدراسة لديه، فقد تحمَّس للقديم أحبَّه وأدانه، وأقبل على الجديد يأخذ منه بقدر وحذر[5].

حاولنا في هذا البحث تسليط الضوء على جهود الخولي في تجديد البلاغة العربية، باستعراض أهم آرائه في هذا المضمار، وتمخَّض البحث عن عدد من النتائج هي:

أهم دواعي التجديد عند المحدثين وهي: جمود البلاغة العربية بسبب تأثرها بالفلسفة والمنطق وعلمية البلاغة، وقصورها في دراسة النص الكامل والقطعة الأدبية الكاملة، فضلا عن معياريتها وابتعادها عن الجانب النفسي في تحليلها للنصوص، وقصورها عن مسايرة الأدب.

---

[1]– ينظر: مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، ص: 166، 266، 267.

[2]– أحمد مطلوب، البحث البلاغي عند العرب، منشورات دار الجاحظ للنشر، بغداد، الجمهورية العراقية، دط، 1982م، ص80.

[3]– ينظر: المرجع نفسه، ص82.

[4]– المرجع نفسه، ص82–83، ودراسات بلاغية ونقدية لأحمد مطلوب، ص89.

[5]– ينظر: هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، ص128.

أهم آراء الخولي في تجديد البلاغة العربية التي لم يغفل القديم فيها تماماً، ولم يكتـفِ بالجديد وحده، وإنَّما كان التلاقي بين الطرفين أساس الدراسة لديه، ومن أهم آرائه: إلغاء التقسيم الثلاثي للبلاغة العربية، وإخضاع البلاغة العربية للمنهج الأدبي، والخروج بها من الشاهد والبيت الشعري إلى النص الأدبي الكامل، فضلاً عن تخليص البلاغة من أعباء المنطق اليوناني، والمجادلات النظرية.

2- الآراء البلاغية المبتكرة لعبد المتعال الصعيدي:

من العلماء عبد المتعال الصعيدي الذي له شهرة مدويّة بمؤلفاته في فن البلاغة وغيرها، ومن كتبه البلاغية "البلاغة العالية علم المعاني"، و"هذا الكتاب فيه آراء من الجدة والدقة والقوة، والأصالة والابتكار، ما تستحق أن يكشف عنها اللثام، وأن تعرض وتحقق وتناقش على بساط البحث العلمي الرصين"[1]، كما جاء في كتابه هذا قضايا مهمة ورائدة هي كالتالي:

"طريقة عرض الدرس البلاغي المعاصر عند الشيخ الصعيدي.

- حيادية الشيخ وموضوعيته.
- نقد الشيخ لآراء بلاغية مستقرة.
- ترجيح الشيخ لرأي بلاغي على آخر.
- آراء بلاغية مبتكرة لم يسبق إليها.
- اتساع أفق الشيخ وعدم جموده أو تحجره.
- تنقية الدرس البلاغي من الأحكام النحوية.
- تقليل الأحكام العقلية ذات النزعة المنطقية في العرض والتقسيم"[2].

---

[1]- عبد الله عبد الغني سرحان، آراء بلاغية للشيخ عبد المتعال الصعيدي، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، القاهرة، 2012م، ص 431.

[2]- المرجع نفسه، ص 432.

كما ذكر الصعيدي في مقدمة كتابه بأن "الكلام في البلاغة والفصاحة قد مرّ في عصرنا هذا في أربعة أطوار: أولها يبتدئ من عهد الجاحظ إلى عبد القاهر الجرجاني، وثانيها من عهد عبد القادر إلى عهد السكّاكي، وثالثها يبتدئ من عهد السكّاكي إلى عهد نهضتنا الحاضرة، ورابعها يبتدئ من بعد النهضة إلى وقتنا هذا، ويمتاز الطور الأول بأن الكلام فيه على الفصاحة والبلاغة كان أقرب إلى الأدب منه إلى البحث الفلسفي، كما يظهر في كتاب البيان والبيان للجاحظ، وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، ومن أشباههما من كُتَّاب هذا العهد، ويمتاز الطور الثاني في أخذه بذلك بشيء من البحث الفلسفي ويمثله عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، ويمتاز الطور الثالث بطغيان البحث الفلسفي فيه على الصبغة الأدبية التي امتاز بها الطور الأول...ويمتاز الطور الرابع بمحاولة القضاء على البحث الفلسفي في هذه العلوم، والأخذ بها في طريقة العلوم الرياضية بدل هذه الطريقة الفلسفية مسائل موجزة، وتمرينات شعرية ونثرية، والطريقة الرياضية التي غزت جميع العلوم، ولهذا سببه من طغيان العلوم الرياضية على غيرها من العلوم، بعد أن كانت الفلسفة صاحبة الطغيان على غيرها في العصور السابقة، والصعيدي يقرر الطريقة المثلى من وجهة نظره في عرض الدرس البلاغي الحديث فقال: كل طائفة من العلوم لها طريقتها التي تناسبها في التعليم، ولهذا اشتق لنفسه في كيفية عرض الدرس البلاغي طريقة تليق بدراستها، ولم يجعل للطريقة الفلسفية أو الرياضية طغياناً، ويقصد الطريقة الفلسفية طريقة السكاكي ومن شايعه، ويقصد الطريقة الرياضية المراغي في علوم البلاغة، وهي الطريقة التي يحبها الصعيدي"[1].

وقد أورد الصعيدي كلاماً للجاحظ: "(إن البديع أمر خاص بالعرب مقصور عليهم وإن سواهم من شعوب الأرض كان يجهله جهلاً مطلقاً)، ثم يعُقّب بقوله: والإنصاف ما ذهب إليه أبو هلال العسكري من وجود البلاغة والفصاحة في كل اللغات"[2]، وقد نقد الصعيدي بعض الآراء البلاغية التي عرفت الاستقرار والثبات وذلك في قوله: (وعندي في دعوى أن المعاني موجودة في طباع الناس بحيث يستوي فيها الجاهل والحاذق مغالاة ظاهرة)، وفي هذا النص يرد على الجاحظ في عبارته

[1]– عبد الله عبد الغني سرحان، آراء بلاغية للشيخ عبد المتعال الصعيدي، ص: 433، 434، 435.

[2]– الجاحظ، البيان والتبيين، ج4، ص55.

الشهيرة (والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي، والقروي والمدني، وإنما الشأن في قراءة الوزن وتخير اللفظ، وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير)، حيث أن المعاني مطروحة في الطريق "يحسن ألا تحمل اللام في المعاني على الاستغراق فتشمل كافة المعاني، فهذه لا يقولها طالب علم، بله الجاحظ ولاسيما أنها جاءت على لسانه ما يؤذن بعنايته بالمعنى الشعري"[1]، أعني المعنى الذي غير أنت آخذه إلا من الشعر، وأورد كلاماً لعبد القاهر الجرجاني: "إن المتكلم لا يكون بليغاً حتى اللفظ يعطي حقه من البيان، ويحقق اللفظ من المعنى، ويضع جميعها مواضعها"[2]، وبهذا الشرح يكون الصعيدي قد جانب الصواب.

ومن ذلك أيضاً ما نقد فيه الصعيدي عبد القاهر الجرجاني قائلاً: إن الفرق بين الإسناد إذا كان بالاسم وبينه إذا كان بالفعل هو كما قال عبد القاهر، فرق لطيف تمس الحاجة في علم البلاغة إليه، وبيانه أن موضوع الإسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء، وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء، فإذا قلت: زيد منطلق فقد أثبت له الانطلاق من غير أن تجعله يتجدد منه شيئاً فشيئاً وكنت في هذا كما تقول: زيد طويل وعمرو قصير، وإذا قلت: زيد ينطلق فقد جعلت الانطلاق منه جزءاً فجزءاً، وجعلته يزاوله ويزجيه، ثم علق الصعيدي على كلام الجرجاني فقال "والحق أن الفعل لا يفيد الاستمرار التجدّدي في كل المقامات، ولا في كل أنواعه الثلاثة (الماضي والمضارع والأمر)، وإنما موضوعه أي ما وضع له عند العرب، في ذلك على إفادة التجدد بمعنى حصول الشيء بعد عدمه، ولا يفيد الاستمرار التجدّدي إلا إذا كان مضارعاً، ولا يكون هذا إلا في مقامات خاصة تستدعيه، وهي مقامات الفخر والمدح والهجاء ونحوها، مثل قول تميم بن تميم العنبري:

أَوَ كُلَّمَا وَرَدَتْ عُكَاظَ قَبِيلَةٌ بَعَثُوا إِلَيَّ عَرِيفَهُمْ يَتَوَسَّمُ

[1]– عبد الله عبد الغني سرحان، آراء بلاغية للشيخ عبد المتعال الصعيدي، ص443.

[2]– ينظر: المرجع نفسه، ص443–444.

يقول الصعيدي: "وقد يكون تشديد الخطيب إلى هذا الحد في أمر الإعراب، واشتراطه في فصاحة الكلام أن يجري على قوانين النحو المشهور نتيجة تساهل قوم قبله في أمر الإعراب ومنعهم أن يكون إعراب الكلام شرطاً في فصاحته، وقد اعتنى ابن سنان الخفاجي بالرد عليهم ولكنه لم يشدّد في مراعاة الإعراب، هذا التشديد الذي سلكه الخطيب، ولعل التوسط في ذلك خير من التشديد فيه فلا تكون مراعاة مذهب الجمهور شرطاً في فصاحة الكلام، بل يكفي في ذلك مراعاة ما يجوز، وان لم يكن هو المذهب المشهور، وقد جاء في القرآن الكريم قراءات كثيرة على غير مذهب جمهور النحاة قوله تعالى ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانْ ﴾[1]، فقد جرى في بعض القراءات على لغة من يجري المثنى بالألف في أحواله الثلاث، وهي لغة مشهورة لكنانة، وقيل لبني الحارث وفي هذا النص يتكلم الصعيدي عن ضعف التأليف وهو من العيوب التي تخص الفصاحة "[2]، وبهذا يُعد عبد المتعال قامة في البلاغة من خلال كتابه البلاغة العامة.

كما اعتنى عبد المتعال الصعيدي بتخليص الدرس البلاغي من الأحكام النحوية في كتابه وذلك تحت عنوان «الفرق بين علم المعاني وعلم النحو»، قائلاً: فرق ابن الأثير بين نظر النحوي في الألفاظ، ونظر صاحب البيان، يريد به ما يشمل العلوم الثلاثة، بأن موضوع علم البيان يشمل العلوم الثلاثة، وهو والنحوي يشتركان في أن النحوي ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع وتلك دلالة عامة، وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة وهي دلالة خاصة، والمراد بها يكون على هيئة مخصوصة من الحسن، وذلك أمر وراء النحو والإعراب، وقد أُخذت أقسام النحو من واضعها بالتقليد حتى لو عُكست القضية بنصب الفاعل ورفع المفعول، ونحو ذلك لما كان العقل يأباه"[3]، ومن هنا يرى الصعيدي أن السكّاكي والخطيب بأن الفرق بين نظر علم المعاني في الألفاظ ونظر علم النحو في المعاني، فأدخلا كثيراً من المعاني النحوية في مباحث علم المعاني قول كاشف عن

---

[1]– سورة طه، الآية 63.

[2]– عبد الله عبد الغني سرحان، آراء بلاغية للشيخ عبد المتعال الصعيدي، ص472، نقلا عن البلاغة العالية علم المعاني، ص21–22.

[3]– المرجع نفسه، ص491.

نهجه في كتابه بخلاف نهج السكّاكي في مفتاحه، والقزويني في تلخيصه وإيضاحه"[1]، وعن تنقية الدرس البلاغي مما يشوبه، يقول عبد القادر حسين: "وهو منهج سديد ينقي الأبحاث البلاغية من كل ما هو دخيل عليها، فهي لا تساند الفن البلاغي، وإنما تشعبه وتزيد من أقسامه، فيتضاعف منه النفور ويزداد فيه الزهد"[2]، وفي قراءة أخرى نجد الصعيدي ينكر على السكّاكي "كثرة تقسيماته للقصر حيث قسم القصر أقساماً عديدة باعتبارات مختلفة"[3]، وهذا الإنكار يبين لنا مكانة الصعيدي البلاغية.

3- الآراء البلاغية لحمادي صمود:

يرى حمادي صمود أن مرحلة (بلاغة ما قبل الجاحظ) تبقى غامضة حيث يقول: "تعتبر هذه المرحلة أقل المراحل وضوحاً وأكثرها استعصاءً على الضبط الدقيق لأنها تمثل طور نشأة العلم وبداية التعرض لمسائله المختلفة"[4]، فمشكلة "الأولية" كما يسميها في قضية النشأة، وقضية المصادر المعتمدة، حيث يرجعها إلى قلة الوثائق والمستندات التي تساعد الباحث على التحقيق ومعرفة النشأة والاتجاه، وكذلك من المصنفات كتب الأوائل، وهي مصنفات يغلب عليها التحيز العقائدي، ولهذا جعلته يحترز منها، ويضع نصب عينيه البحث عن العوامل الثقافية والتاريخية والحضارية التي تساعده على بلورة التفكير البلاغي عند العرب.

كما يرى أن من عوامل نشأة البلاغة الشعر، ونظراً لأهميته في الحضارة العربية والإسلامية، فالعرب

---

[1]- ينظر: عبد الله عبد الغني سرحان، آراء بلاغية للشيخ عبد المتعال الصعيدي، ص493.

[2]- المرجع نفسه، ص498، نقلا عن البلاغة العالية علم المعاني ص(ك).

[3]- المرجع نفسه، ص504، نقلا عن البلاغة العالية علم المعاني، ص49-50.

[4]- المرجع نفسه، ص19.

اهتموا بالشعر حتى روي، وهنا يذكر الجاحظ أنه "ما أبرم عمر بن الخطاب أمراً قط إلا تمثل ببيت شعر"[1]، هذا ما يدل على مكانة الشعر والشاعر عندهم، كما يدل هذا على إتقان عمر ﷺ لفن الشعر والتمثل به في كل المواضع.

وفي باب الصناعة الشعرية، يقول ابن سلام الجمحي(ت231هـ) "وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم"[2]، إذن الشعر في نظر ابن سلام هو ثقافة لا يثقفها كل الناس بل تقتصر على أهل العلم دون سواهم.

كما نرى براعته في كتابه «الشعر والشعراء»، بحيث يصور لنا حالة العرب في الجاهلية وكيف بلغ الشعر هذا المبلغ، يقول الجمحي في هذا الباب "وكان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون واليه يصيرون"[3]، فكان بحق قانوناً وديواناً يحتكمون إليه في شتى مجالاتهم.

لقد كان الشعر عند العرب ديوان علومهم وأخبارهم، وشاهد صوابهم وخطئهم وأصلاً يرجعون إليه في الكثير من أمورهم، أورد ابن سلام عن عون، عن ابن سيرين، قال: قال عمر بن الخطاب (كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه)"[4]، ومن هنا يستخلص حمادي أن الشعر هو مصدر للأحكام، وتفطن الشعراء لضرورة تعهد الصياغة الفنية وتنقيح الشعر.

كما يرى "أن العرب تجاوزت مجرد التذوق والانفعال إلى ربط البراعة في نظم الشعر بالبراعة في صياغة الصورة الفنية "[5]، كما تعرض إلى قضية اللغويين وطبيعة نشوء المستوى الفني في اللغة.

---

[1]– الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى بابي وأولاده، مصر، ط5، 1943م، ص590.

[2]– ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تح: محمود شاكر، مصر، ص5.

[3]– المرجع نفسه، ص24.

[4]– المرجع نفسه، ص24.

[5]– المرجع نفسه، ص29.

ومن أهم أسباب نشأة البلاغة هو نزول القرآن الكريم، ومع نزوله بدأت مسيرة "نشطة تتصل بجملة من المشاكل التي طرحها مجيئه في ذلك الوقت المبكر "[1]، فنزول القرآن الكريم كان له الأثر الكبير في الحياة العربية خاصة فيما يتعلق باللغة والتأثير على اللغة العربية، "فسارعوا إلى تقنينها وضبطها خدمة له وخوفاً من أن يصيبه الفساد بمفعول عوامل تاريخية موضوعية باعدت بين فصاحة اللغة وصفائها والأقوام الجديدة التي ضعفت صلتها بمعدن تلك الفصاحة "[2]، وهنا برزت قضية الإعجاز التي أصبحت في صدارة مسائل الاحتجاج والاستدلال للنبوة، هذا ما جعل المتأخرين يرجعون إلى القرآن بدراسة تقوم على العقل والحجج، وقام المعتزلة بصفة خاصة بدور المدافع عن الإسلام، وفي ظل هذه البيئة نشأ التفكير البلاغي وترعرع على مستويين رئيسين:

- ما تعلق بقضية الإعجاز وتأويل بعض المعتزلة لذلك وما نشأ عنه من ردود أفعال.

- تأويل الكثير من الصفات التي تتنافى مع أصولهم العقائدية خاصة مبدأ التوحيد.

كما يرى أن أقدم الآراء في الموضوع تعود إلى إبراهيم بن سيّار النظام (ت 232 هـ)، وقوله في (الصرفة)، ولعل أهم نظرية كانت استثماراً في تراثنا البلاغي هي نظرية النظم[3]، وستأتي المؤلفات فيما بعد لتقتفي هذا الأثر وتسير على هذا المنوال في معالجة قضايا الإعجاز، ذات صبغة دفاعية وعقائدية بحتة، كما تحدث عن تقعيد اللغة، وكل ما يخص قواعد اللغة وضوابطها، "وهو ما يتجلى في الدراسات الأسلوبية اليوم، وأصبحت من المسلمات المنهجية، أما البلاغة فوظيفتها وصف الطرق الخاصة في استعمال اللغة وتصنيف الأساليب بحسب تمكنها في التعبير عن الغرض تعبيراً يتجاوز الإبلاغ إلى التأثير في المتكلم أو إقناعه بما نقول أو إشراكه في ما نحس به، وغايتها مد المستعمل بما

[1]– حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص34.

[2]– المرجع نفسه، ص34.

[3]– ينظر : المرجع نفسه، ص35–37.

تعتبره أنجع طريقة في بلوغ المقاصد"[1]، وهي عكس النحو إذ تنطلق من الاستعمال الخاص وتجعله موضوعها.

يرى حمادي صمود أن تأثير البلاغة الأجنبية في البلاغة العربية لقي اهتمام المعاصرين، وكانت دراسات كثيرة اهتمت بمدى انصهار الثقافة الأجنبية في البلاغة العربية، خاصة دراسة طه حسين «البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر» ، وهو بحث قدمه بالفرنسية، وقد درس حمادي القضية من كل جوانبها وخلص إلى أن البيئة العربية كانت على صلة بتيارات أجنبية استفادت منها البلاغة العربية، ولكن "ليس في مقدورنا ضبط ذلك الوجه بدقة وتفكيك ذلك البناء المتراص لنرجع كل لبنة منه إلى أصلها"[2]، وهنا يقر حمادي صمود بصعوبة بناء الإرث البلاغي المتجذّر.

كما حدّد وظائف "الخطاب ومجاري استعمال الظاهرة اللغوية لتداخل مفاهيم البيان التي سبق أن حددناها، وعدم استقلال مسائل البلاغة عن المسائل اللغوية العامة، ثم لأن نصوصه تحمل الباحث، إن درست درساً جزئياً على استنتاجات قابلة للنقاش"[3]، كما استخلص ثلاث وظائف رئيسة هي:

- الوظيفة الخطابية بالمفهوم اليوناني ويتجلى في خطابة أرسطو وما كتبه الفلاسفة المسلمون.

- وظيفة سياسية استعملت فيها الخطابة لبسط النفوذ و إقرار نظام الحكم بالترغيب والترهيب.

- أما الثالثة فهو جدلي مذهبي أفرزه التصدع في الأمة الإسلامية، وتفرع المسلمين إلى ملل نحل.

---

[1]– حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص47.

[2]– المرجع نفسه، ص47.

[3]– المرجع نفسه، ص187، نقلا عن عبد السلام المسدي، حوليات الجامعة التونسية 13/1976م، ص56–57.

ختم حمادي صمود هذا القسم الثاني من الكتاب، بحيث ذكر كثرة المصنفات والتي غلبت عليها "سمة الفوضى وقلة الأحكام"[1]، كما ذكر في نهاية هذا القسم أن من أسباب مشاركة الجاحظ في تأسيس البلاغة العربية ما يلي: "اعتماده في ضبط مستلزمات البيان والتبيين على الجنس الخطابي وكذلك اعتماد المؤلف على الجنس الخطابي، ليس من باب الصدفة، بل لقناعاته وخصائص بيئته الفكرية والسياسية والاجتماعية، وهو من رؤوس المعتزلة حتى سميت فرقة من فرق المعتزلة باسمه، وهذا ما جعل الجدل الكلامي الداعي الوحيد لهذا الجنس بسبب الرد على الخصوم وردء حججهم وذلك في حديثه المطول عن خصائص الخطيب، وإثباته لأشهر الخطب المعروفة إلى عهده"[2]، كذلك رؤيته الاستشرافية لعهد يسوده الكتاب الذي بدوره هو وسيلة للعلم وأداة لنشره، وكذلك توفيقه بين الاعتماد على القرآن والخبر والشعر، وعلى الخطابة.

كما عرّج على بلاغة ما بعد الجاحظ وتبدأ نهاية القرن الخامس مع الجرجاني، وبداية السادس تنتهي مع السكاكي، والصمود يبدأ المرحلة الثانية مع السكاكي "الذي تكتمل مراحل البلاغة عنده، كما أجمع النقاد قديماً وحديثاً على أن كتاب "البديع" لعبد الله بن المعتز (ت296 هـ) أول تأليف صنف في البديع ورسم حدوده (فأصبح صاحبه إماما لكل من صنفوا فيه)، بالإضافة للبيان والتبيين يُعد النواة الأولى لعلم البلاغة"[3]، وكذلك وجدت محاولات أخرى "واحدة لابن قتيبة، والأخرى للمبرد وكذلك محاولة لابن المدبر (ت279 هـ)، موسومة بالرسالة العذراء"[4]، وهي لا تخرج عما رسم الجاحظ في «البيان والتبيين»، ثم ابن قتيبة وهو من العلماء المكثرين في التصنيف، والذي عُرف بالذب عن مذهب أهل السنة فهو إمام من الأئمة البارزين، ففي الشعر والشعراء لمحات بلاغية انبنت عليها جملة من الأحكام النقدية مما يؤكد على أهمية العامل الأدبي في تغذية البلاغة العربية.

---

[1]– حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص297.

[2] –المرجع نفسه، ص305–306.

[3]– المرجع نفسه، ص315.

[4]– المرجع نفسه، ص315.

المبحث الثالث: المشروع البلاغي الجديد

لقد انبنت قراءة العمري للمشروع البلاغي على مرتكزات وخلفيات، وفيها سنركّز على أهم المفاصل الكبرى للبلاغة العربية في كتابه، والتي هدفها كشف التاريخ القديم للبلاغة، والبلاغة الجديدة التي قرأها بتوابل النظريات المعاصرة كالبنيوية، والتداولية، ونظرية التلقي، كما أن هذه الدراسة تهدف إلى رسم معالم الدرس البلاغي، يقول العمري: "قد يُغري تداخل البلاغي والنقدي في بعض مراحل الدرس الأدبي العربي القديم بإنكار هوية هذا أو ذاك بقليل من التأويل أو بدونه، وهذا طريق سهل والأصعب منه والأجدر بالتبني هو اعتماد التطور التاريخي الراصد لأوجه التداخل والتخارج في اتجاه تكوين العلوم وتحقيق هويتها"[1]، فقد اعتمد المنهج التاريخي ليرصد المفاصل الكبرى للدرس البلاغي فقد تتبع تطورها التاريخي، وكشف عن خصائصها ومميّزاتها، معتمداً على القراءة النسقية، حيث يقول: هي "مكون من مكونات النظرية النقدية وثمرة من ثمرات الملاحظة النقدية الأولية"[2]، وهي قراءة غلبت على كامل مصنّفه، "كما يرى أن التناول العربي النقدي كان مفتقداً للنظرية التي يمكن أن تقدمها الرؤية البلاغية، وهذا ما تمثل في الاختيارات الشعرية، وفي عمل المرزوقي مع أبي تمام في الحماسة، حيث بدأ كتابه نقداً وانتهى بلاغةً، وهذا هو النقد في بعده الاصطلاحي.

والعمري اهتم بتحديد مفهوم البلاغة حيث يقول: "فالبلاغة مفهوم تاريخي يتغير بحسب الثقافات والحقب سواء في الثقافة العربية الإسلامية أو الغربية القديمة والحديثة"[3]، وبعد تجربته الكبيرة مع الترجمة وطوافه بالنظريات الغربية، حيث يعترف بتغير المفهوم البلاغي حسب المكان والزمان.

---

[1]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص43.

[2]- المرجع نفسه، ص43.

[3]- محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2013م، ص11.

إن كلمة مشروع تحمل في طياتها التخطيط والتحقيق وتعطينا صورة عن التكامل والتناسق خاصة إذا كان المشروع مشروعاً فكرياً، ومشروع العمري يحمل تصوراً نظرياً لما يتصور عليه البلاغة ويدعمه بالتطبيق والإنجاز، كما نجد عنصر النسق والتواصل موجوداً، وأعمال العمري تأتي في نسق واحد حتى مؤلفاته في تحليل الخطاب تندرج ضمن الرؤية البلاغية الموسعة، فلا يمكن أخذ عمل من أعماله بعزلة عن سابقه أو لاحقه أو حتى بعيداً عن النسق الذي يعمل عليه، أو المقاصد التي وضعها لمنجزاته، وتركيزنا على مفهوم المشروع وعنصر التواصل فيه والمقصدية الموحدة يضعنا أمام نقطة مهمة وهي عدم الخلط بين آراء صاحب المشروع وآراء غيره في موضوع قد يشترك فيه معه، لأن العمري باعتباره صاحب مشروع ستكون نظرته موجهة في إطار الخلفيات والمنطلقات التي وضعها والمقاصد التي حددها.

البلاغة والبلاغة العامة عند العمري:

اهتم العمري بتحديد مفهوم البلاغة، وعرض لهذا الأمر في العديد من المواضع في مؤلفاته "فالبلاغة مفهوم تاريخي يتغير بحسب الثقافات والحقب سواء في الثقافة العربية الإسلامية أو الغربية القديمة والحديثة"[1]، لكن بعد طوافه بالنظريات الغربية والتراث العربي يقول: "أما بعد هذه التمهيدات فمن حق من درس في جامعاتنا من المحيط الى الخليج أن يسألني الآن: عن أي بلاغة تتحدث؟"[2] هذا السؤال الذي رأى العمري أنه من الضروري أن يكون حاضراً في الدراسات العربية لأنه هو محرك البحث الذي دفع الدراسات الغربية إلى البحث عن بلاغات متنوعة ومنه تطوير درسهم النقدي .

ويجيب العمري عن هذا التساؤل مقسماً البلاغة إلى كفاءة تعبيرية، لأن الكلام البليغ هو الكلام الفعال المعجب، حيث يقول: "ومن هنا نقول: البلاغة هي علم الخطاب المؤثر القائم على

[1]– محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص11.

[2]– محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص17.

الاحتمال"[1]، والخطاب المؤثر القائم على الاحتمال يتوزع عبر نوعين: الخطاب التداولي الحجاجي والخطاب التخييلي الشعري.

لكن أليس من الضروري التساؤل عن الخلفية المرجعية التي حدد من خلالها العمري مفهوم البلاغة؟ ألم يتأثر تحديده هذا بالخلفية الأرسطية ؟ وبلاغة الحجاج ؟ وما محل التراث العربي في المفهوم الذي قدمه للبلاغة؟ إن المفهوم الذي قدمه العمري يرمي إلى بناء بلاغة مغايرة للتصور القديم، وإذا كان الأمر كذلك فما هو التصور الذي يريد العمري ترسيخه؟

في دراسة متأخرة منشورة له في كتاب مشترك أَعَدَّه مُحَمَّد مشبال، يوضح فيه العمري أن البلاغة التي يرمي إليها هي بلاغة عامة تؤسس موقعها بدراسة كلا النوعين من الخطاب التداولي والشعري ويناقش من خلاله عرضه هذا مسألة البلاغة والخطابة بين الوجهتين العربية والغربية موضحاً بأن مفهوم rhetorique عند الغربيين يطابق الرؤية العربية التراثية التي ترى بأن البلاغة هي بلاغة عامة تتناول جميع الخطابات والبلاغات الخاصة بكل خطاب"[2]، كما تطرق لشرح الريطورية باعتبارها تتناول الخطاب الإقناعي، وقد ساهمت الدراسات التداولية في إعادتها إلى الساحة تحت مسمى البلاغة الجديدة أو الحجاج، يقول في ذلك: "فالبلاغة باعتبارها العلم الذي يتناول الخطاب الاحتمالي المؤثر تنقسم إلى شعرية تتناول كل المخيلات وخطابية تتناول كل المصدقات (أو التداوليات)"[3] لكن العمري لم يصل إلى نتيجة البلاغة العامة دون كفاح بعد أخذ ورد بين الدراسات، لأن الأمر يحتاج إلى مشروعية الوجود، فما هي جذور البلاغة العامة وما مشروعية وجودها؟ خاصة وأن العمري يشير إلى التداخل بين الشعري والخطابي كما نلاحظ ذلك في مخططاته.

---

[1]– مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص8.

[2]– ينظر: مُحَمَّد مشبال، البلاغة والخطاب، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2014م، ص42.

[3]– المرجع نفسه، ص44.

يناقش العمري مسألة البلاغة العامة ومشروعية وجودها ضمن مختلف أعماله التي تهتم بالبلاغة الجديدة والتراث العربي البلاغي، فالبلاغة العامة يتقاطع فيها التخييل والتداول، وهي عبارة عن وصل بين الشعرية والخطابية وقد "بذل بلاغيون محدثون جهداً فلسفياً ومخبرياً إن صح التعبير في بيان مدى صلابة الأساس العلمي لقيام بلاغة عامة البلاغة باعتبارها علماً كلياً يستوعب ثمار علوم اللسان وعلوم الإنسان"[1]، هكذا تظهر رؤية العمري للبلاغة العامة والمرتكزات التي يريد تأسيسها ودعمها من خلال فهم العلم الكلي والمصطلح[2].

ويعتبر العمري هذا الطموح الذي تريد بلوغه البلاغة أمراً طبيعياً، لأنها ترغب في استرجاع الأراضي التي فقدت منها وأخذتها ميادين عاشت على ميراث البلاغة.

ثم يتجه العمري إلى التراث العربي ليبرر شرعية وجود البلاغة العامة ويؤصلها يقول: "فللبلاغة العربية إذن مهدان كبيران أنتجا مسارين كبيرين مسار البديع يغذيه الشعر، ومسار البيان تغذيه الخطابة ونظراً للتداخل الكبير بين الشعر والخطابة في التراث العربي فقد ظل المساران متداخلين وملتبسين رغم الجهود الكبيرة النيرة التي ساهم بها الفلاسفة وهم يقرؤون بلاغة أرسطو وشعريته"[3].

فالعمري يرى بأن البلاغة العربية تنطلق من الملاحظات الأولى حول الخصوصية الشعرية والجمالية التي لاحظها العرب ثم قارنوا بينها وبين النص القرآني، وهذا الأمر قامت بأعبائه الدراسات البديعية، فالبلاغة هي العلم الكلي الجامع وما يجمعه هو صناعتي الشعر والخطابة لقوله: "لما كان علم البلاغة مشتملاً عل صناعتي الشعر والخطابة وكان الشعر والخطابة يشتركان في مادة المعاني ويفترقان بصورتي التخييل والإقناع .. وكان القصد في التخييل والإقناع حمل النفوس على فعل شيء

---

[1]– محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق، المغرب، 2012م، ص21.

[2]– ينظر: بوعافية محمد عبد الرزاق، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة، جامعة محمد لمين دباغين، سطيف2، 2014–2015م ص64.

[3]– المرجع السابق، ص29.

أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقاده"[1]، فالبلاغة تجمع بين فعاليات الحجاج والتخييل، إذ يبدو اللقاء بينهما على مستوى: المواضيع والمعاني، والمقاصد والأغراض (التأثير).

يقول العمري: "فالشعر مبني على التخييل وقد يستعمل مكونات الإقناع الخطابي ضمن هيمنة العنصر الذاتي وعكس ذلك حال الخطابة التي تنبني على العناصر الاقناعية وتدخل العناصر التخييلية في خدمتها"[2]، وبهذا ينبني مفهوم البلاغة والبلاغة العامة عند العمري على لقاء عنصري التخييل والتداول، وهو يقوم ببناء شرعية وجود هذه البلاغة وأحقية تطبيقها بالحوار بين النموذج الغربي الحديث والتراث العربي[3]، من أجل ترسيخ هذا النموذج الذي يرى فيه العمري مجالاً يسمح باستعادة البلاغة لمكانتها التي كانت عليها، واستعادة الأراضي التي فقدتها منذ تحنيط البلاغة.

مراحل مشروع العمري:

عندما حددنا أعمال العمري بالمشروع العلمي ذي الأهداف والمقاصد المعلنة، وحددنا مفهوم البلاغة عنده والأسس المعتمدة لبنائها، سيكون من الضروري الإلمام بمراحل هذا المشروع، لمعرفة المفاصل التي تتمحور عليها قراءتنا، كذلك تحديدنا لمراحل هذا المشروع هو تحديد للمرجعيات المعتمد عليها ومعرفة التغييرات الطارئة على النظرية النقدية والبلاغية الغربية والعربية وتفاعل العمري معها.

بلاغة الإقناع في المشروع العمري:

دخل العمري عالم الدراسات البلاغية الجديدة والنقدية من باب الإقناع ودراسة آليات الحجاج، ثم بين في هذه المرحلة اهتمامه بنص الخطابة العربية في كتابه بلاغة الخطاب الإقناعي، هذا العمل الذي بدأ ببيان أهمية الجانب الإقناعي في البلاغة العربية، ومسألة إهماله من طرف البلاغيين المتأخرين خاصة علماء الإعجاز، وإن كان هذا الأمر يحتاج الى مناقشة لأننا نجد الرماني والباقلاني يشير كل منهما الى قضية الاحتجاج وصحة البرهان مع حسن البيان، بل نجد الجاحظ يشير لهذا في حجج

[1]– حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1981م، ص226.

[2]– محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص57.

[3] – ينظر: بوعافية محمد عبد الرزاق، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة، ص67.

النبوة لإثباتها، والعمري في عمله هذا يتخذ من الرؤية الأرسطية إطاراً يتناول من خلاله قضية الإقناع في البلاغة العربية، ويقول في ذلك: "ثم رأيت من الدارسين الغربيين المحدثين الذين لهم باع في هذا المجال يستنيرون بآراء أرسطو بل ويعتبرونها حديثة ومناسبة للمجتمعات الحالية، فزاد اقتناعي بإمكان تأطير اجتهادات البلاغيين العرب بالإطار العام للنظرية الأرسطية"[1]، كما نجد العمري في اعتماده على ما هو أرسطي في قراءة التراث البلاغي يعتمد على القراءة الغربية لأرسطو وبالضبط (شاييم بيريلمان وتيتيكا) في كتابهما: مصنف في الحجاج، وقد أصدر دراسته هذه في سنة 1986م والعمري نفسه يبين أهمية رؤية بيريلمان للناحية الاقناعية في البلاغة، ويرى ضرورة تسليط الضوء على جانب الإقناع في بلاغتنا العربية ونصوصنا.

وقراءة العمري لنص الخطابة العربية لم يبلغ الظروف الملابسة لنشأتها، أو ما سماه بالمقام وتحديد مواضيعها، إذ يقسمها إلى بلاغة دينية وخطابية سياسية وخطابة اجتماعية، ولكل منها خصائص وأضرب تتفرع عنها، والتي يحلل من خلالها نص الخطبة بين المقام والحجج والأسلوب وعلى ضوئها يقدم عملاً تطبيقياً.

كما تميزت قراءة العمري للموازنات الصوتية، حيث أعاد الاعتبار لكتب البديع مثل «المنزع البديع» للسجلماسي، وأعاد النظر في كتب مثل سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، والملاحظ على عمله هذا أنه "كان بداية جادة للاهتمام بالاتجاهات البلاغية خاصة في فصله (موقع الموازنات الصوتية في الاتجاهات البلاغية) الذي اهتم فيه باتجاه الجاحظ وابن وهب الكاتب ثم ابن سنان الخفاجي والجرجاني والباقلاني ليربط النتائج مع مفاهيم التخييل والمحاكاة عند الفلاسفة كابن سينا والفارابي"[2]، هذا التفكير الذي يصل بين التاريخ الشعري والتفسير البلاغي، ويساهم من جهة في كشف المغيب من بلاغتنا العربية هو ما سيتيح للعمري الانطلاق في مشروع إعادة قراءة البلاغة العربية في كتابه «البلاغة العربية» بعيون «البلاغة الجديدة»، متخذين من مشروع العمري نموذجاً

[1]– محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص9.

[2]– محمد العمري، الموازنات الصوتية، ص: 47، 132.

لذلك ، دون تضييع أو فصل الكتاب عن كامل المشروع لأن أعمال العمري لا تسمح بهذا الفصل الشنيع الذي لا يراعي مبادئ البحث العلمي في المشاريع الكبرى[1].

أصول البلاغة وتأريخها بين النسق والتلقي.

كان كتاب (البلاغة العربية أصولها وامتدادتها) الخلاصة التي وصل إليها العمري، بعد بحث في البلاغة العربية وتنقيب عن أصولها، ومحاولة معرفة الخلفيات التي بنت الدرس البلاغي العربي.

وكان العمري يرى بأن عمله ضروري، لأن الدراسات التي كانت تمر به وهي قراءات تجزيئية للبلاغة أو اختزالية تحاول أن تختزل البلاغة في رؤية السكاكي، أو في أحيان أخرى تقتصر على قراءة القزويني للسكاكي ومن جاء بعده، مقصية الروافد والاتجاهات الأخرى، هذا الأمر دعا العمري إلى ضرورة التحرك من أجل التأريخ للبلاغة العربية، ليقوم بعمل الجمع بين ما هو نسقي بنيوي وما كان صميم نظرية التلقي التاريخية عن ياوس، منطلقاً بذلك إلى اكتشاف المناطق المجهولة والمنسية في بلاغتنا العربية.

يقول مُحَمَّد العمري: "كتاب البلاغة العربية أصولها وامتداداتها هو في الواقع امتداد لكتيب صغير سابق هو «الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية»، والأخير جزء من المشروع العام في دراسة البنية الصوتية في الشعر العربي فخلال انجاز الجزء التاريخي من ذلك المشروع وجدت نفسي أمام خطاطة تصنف البلاغة العربية... ثم جاءت ظروف محايثة رجحت التاريخ على البحث في موضوع الدلالة ذلك بعد تزايد الاهتمام بالتلقي في الثمانينات"[2].

مقاصد مشروع العمري:

ما يرمي إليه العمري من خلال مشروعه ليس فقط تاريخ البلاغة العربية بطريقة روتينية تتبع المحطات التاريخية، أو معرفة أهم اللحظات في درسها بل يتجاوز هذا المقصد الداخلي الضيق ليوسعه

[1] – ينظر: بوعافية مُحَمَّد عبد الرزاق، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة،ص74.

[2]– مُحَمَّد العمري، أسئلة البلاغة العربية في النظرية والتاريخ والقراءة، ص253.

إلى تاريخ البلاغة العالمية، ومن المهم أن نذكر عبارة العمري في مدخله العام حول التأريخ في البلاغة العربية أصولها وامتداداتها إذ يستهل عمله ببيان أن كتابة تاريخ للبلاغة العربية مسألة ملحة لاعتبارين عام وخاص، وهو اعتبار منهجي يختص بتغير ظروف القراءة وتغير السؤال الأدبي ثم يردف قائلاً: "وقصارى ما يطمح إليه (عمله) أن يكون خطوة في السعي لكتابة تاريخ شامل لبلاغة العربية"[1]، ثم يحدد المسار الذي يسير فيه من أجل مقصده[2]، مذكراً بأن التيارات النقدية الحديثة "ترى إمكانية إعادة قراءة البلاغة على ضوء المكتسبات المنهجية الجديدة"[3]، ويضع العمري أعماله ضمن هذا الإطار.

إذن مشروع العمري يهدف إلى تأريخ البلاغة العربية تأريخاً يحافظ على الأصول التي بنيت عليها، ولا يهتم فقط بالتسلسل التاريخي المتتابع، لأن هناك من التيارات والاتجاهات التي تنشأ متوازية ومتابعتها تحتم اعتماد مفاهيم كالنسق والبنية .. وغيرها من المفاهيم التي سنتوقف عندها لنكتشف استثمار العمري لها، كذلك من المهم أن نشير إلى أن ما يرمي إليه العمري هو قراءة هذه البلاغة ضمن التيارات المعاصرة وفي ضوئها، وذلك لإغنائها وكشف المغيب عنها، ونجد عنده العمري غرضاً تعليمياً يريد الوصول إليه رغبة منه في تغيير طرق تدريس البلاغة التي أصبحت قديمة، ويظهر الهدف التعليمي من خلال الخطاطات والتشجيرات والخرائط المفاهيمية التي يسخرها في سبيل الإفهام. هذه التقنيات البيداغوجية تفتح المجال للحديث عن مقصد آخر للعمري وهو: الحصول على تاريخ علائقي ونسقي للبلاغة العربية حيث لا تقف الشخصيات والمؤلفات بعيدة عن بعضها البعض كتلك الجزر المتناثرة دون نظام يحفظ نسقها، مع أن تاريخ البلاغة يشهد بعكس ذلك وتكفي قراءة الظروف المحيطة بنشأته لفهم هذا النسق الذي ينظمها.

لكن العمري يسطر لعمله مقاصد عالمية يهدف من خلالها إلى إعادة الاعتبار للبلاغة العربية ضمن بلاغات العالم، وأن تلتفت الدراسات الحديثة لموقع بلاغتنا، وخاصة قراءة العرب لأرسطو

---

[1]– محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص9.

[2] – ينظر: بوعافية محمد عبد الرزاق، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة، ص76.

[3]– المرجع نفسه، ص11.

ومنهم ابن رشد، وإعطائهم المفاهيم الجديدة وتأويله معهما أرسطو، وتكييفه مع وجهة النظر العربية ليصبح الانجاز العربي أحد إمكانات البلاغة التي تتيحها خطابة أرسطو أو شعريته، لأن الدراسات الغربية تتجاهل المنجز العربي مع احتفاء العرب بالمنجز الغربي[1].

والعمري يضع منجزه «البلاغة العربية أصولها وامتداداتها» بين بعدين: بيداغوجي تحليلي وقد سبق الحديث عنه، وآخر تأويلي "يساهم في ربط المشاريع والمنجزات والكشف عن خلفياتها أو تفسيرها واستكشاف مساراتها الكبرى"[2]، هذا البعد الأخير هو ما أراد العمري كذلك الوصول إليه أي كتابة تاريخ للبلاغة العربية أو دراسة مشاريعها بالبحث الشامل عن الأصول والربط بين المنجزات وإقامة العلاقات واختيار المشاريع وقراءتها في ضوء معطيات عصرها، والتفريق بين المشروع الذي يحمل هماً نسقياً وبين عمل تراكمي.

المشروع العمري ومرتكزاته:

المقصود بالمرتكزات الأسس والمنطلقات التي بنى العمري عليها مشروعه، والسبل التي اتخذها وسلكها للكشف عن المغيب والمجهول من بلاغتنا العربية وكانت كالتالي:

1- البحث من الداخل:

ينطلق العمري من التراث العربي البلاغي ليفحص مناطقه ويتحسس مكامن القوة فيه، ويبحث عن الأسئلة البلاغية التي تمكن من الحصول على مشروع بلاغي محدد النسق والمقاصد، ونجد عملية البحث من الداخل أو ما سماه بالاكتشاف من الداخل في بحثه عن أصول ومنابت البلاغة العربية وربط العلاقات بين هذه الأصول ثم في امتدادات المشاريع البلاغية الكبرى.

ومن الأهمية بما كان أن نعرف ما المقصود بالنسق عند العمري؟ وما هي الطريقة التي اتبعها في تحديد الخيوط المتحكمة في أصول البلاغة العربية، وتعيين منابعها وروافدها؟

---

[1] – ينظر: بوعافية محمد عبد الرزاق، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة، ص77.

[2] – محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص6.

2- النسق في المشروع:

إذا توجهنا للنسق عند العمري وجدناه منطلقاً نظرياً، أخذه من البنيوية وسخره كأداة إجرائية تمكنه من رصد الخيوط التي تحرك المشاريع البلاغية، والتي تؤهلها لأن تكون محوراً لدراسة اتجاه معين وهذا نلمسه في حديثه عن السياق الذي نشأت فيه الدراسات البلاغية أو الظروف العلمية الفكرية[1] التي أحاطت بها، "لقد تقوى مفهوم النسق والبنية في البحث العلمي العربي منذ البداية عندما علا القياس على الرواية، القياس الذي يقوم على استقراء الظواهر واستخراج نظامها الخفي الذي يترجمه الإطراد"[2]، ويصرح العمري بأن من بين أهم مرتكزات عمله في تاريخ البلاغة العربية استخراج أنساق المؤلفات، ومن ثم تحديد المشاريع التي يمثلها يقول: "وبدأ يزعجني ما أسمعه في الندوات العلمية من استشهادات بنصوص منتزعة من النسق، لا نعدم في المؤلف الذي أخذت منه ما ينقضنا أو يخالفها مخالفة صريحة، ولذلك كان من بين همومي الموجهة حين تصديت لإعادة قراءة تاريخ البلاغة العربية استخراج أنساق المؤلفات في حوار بين المشاريع والمنجزات"[3]، إذن فتحديد النسق هو المعيار الذي يؤهل العمل البلاغي لأن يكون مشروعاً في نظر العمري.

اختيار المشروع: اختيار العمري للمشاريع أو ما أطلق عليه اسم (الامتدادات الكبرى أو النماذج الكبرى) قائم كذلك على التفريق بين المشروع الذي يمثل المقاصد والمنطلقات التي يجب أن يكون عليها عمل البلاغي في بنائه المعرفي والمنجز وهو ما تحقق فعلاً ووصل إلينا، يقول العمري: "لقد قادني البحث في موقع الموازنات الصوتية من الرؤية البلاغية ...إلى تكوين تصور عام عن مسارات البلاغة العربية وخلفياتها الفكرية والأيديولوجية كما قادني إلى اكتشاف الفروق بين المشاريع والمنجزات وما يؤدي إليه ذلك من تضارب بين منطوق نصوص من المؤلف البلاغي الواحد"[4]، ولهذا نجد العمري اختار دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ثم سر الفصاحة ليختم الحديث عن الامتدادات بمنهاج البلغاء

---

[1]- ينظر: بوعافية محمد عبد الرزاق، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة، ص80.

[2]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتدادتها، ص15.

[3]- المرجع نفسه، ص16.

[4]- المرجع نفسه، ص15.

لحازم القرطاجني، "لأن كل واحد من هذه المشاريع كان له منطلقات نظرية ومقاصد وضعها وعمل على تحقيقها في منجزه"[1]، فالعمري لم يضع مسألة الكونية، والكليات الفطرية، وقراءة النسق الفكري والسياسي المرافق للأعمال البلاغية ضمن منطلقاته، وإن اهتم بالسياق الفكري المذهبي، وهو الذي مكّنه من فهم ابن سنان الخفاجي.

هذا بالنسبة للقراءة من الداخل التي قام العمري بسبكها وتحديد نسقها وعلى أساسها اختار المسارات الكبرى التي سيدرسها.

الخلفيات الغربية لدى العمري:

إن الخلفية الغربية للعمري برزت من خلال قراءته وترجماته التي قادته إلى اتخاذ منهج بعينه وتشكلت لديه رؤية دون غيره من الباحثين، ومن أبرز الخلفيات نجد البنيوية التي وجهت رؤيته ومنهجه في البحث والتنظيم، وكذلك التداولية والحجاج التي اجتاحت مشروعه.

ومن أبرز المناهج التي سيطرت على كتابه المنهج البنيوي، لأن بعض القضايا التي رصدها تتطلب معالجة بنيوية إحصائية، كما وظّف كذلك "نظرية القراءة التي أعادت النظر في موقف الدارسين المحدثين من تعامل الفلاسفة العرب مع التراث الأرسطي، خاصة مع كتاب الشعر، فقد بينّا كيف أن الفلاسفة العرب لم يكونوا مشغولين بالتطابق مع أرسطو "[2]، هذه النظرية التي جاءت بها المدرسة الألمانية استثمر العمري مفاهيمها الجمالية، ليكشف لنا ما كان عليه الفلاسفة العرب ونظرتهم إلى البلاغة الأرسطية.

وفيما يلي نلقي الضوء على أهم الخلفيات الغربية الحاضرة في كتابه والتي استعان بها في مشروعه.

[1]- محمّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص64.

[2]- المرجع نفسه، ص12.

1- البنيوية:

إنّ كتاب «البلاغة العربية أصولها وامتداداتها» غلب عليه المنهج البنيوي، والبنيوية أو فكرة النسق هي منهج استعان به العمري في إعادة قراءة الدرس البلاغي العربي، والنبش عن تياراته واتجاهاته، حيث يقول: "ولا شك أن للمعالجة البنيوية اللسانية، جدوى كبيرة في استخراج الأنساق وتفسير الفعالية "[1]، والمنهج النّسقي ظاهر في كتاب العمري وذلك من خلال استخدامه للخرائط والمخططات [2]، التي تعتبر لغة واصفة وضابطة للعلاقات وموضحة للأصول والمسارات، يقول العمري: "إن الأسئلة التي تطرحها القراءة تتطلب مبدئياً معالجة بنيوية تقوم على التحليل والإحصاء، كما تتطلب معرفة سوسيو-أدبية "[3]، فقد نهجَ العمري التحليل البنيوي في هذا المؤلف، باعتماد قراءة تربط علم الاجتماع بالأدب، والكتاب نسقي يرصد خطوط الطول والعرض في خريطة زمنية تمتد عبر قرون، وأنه كان بحاجة لهاته الخريطة التي يملؤها بسهولة من خلال أعمال أخرى أنجزها باحثون آخرون، كما لم يترك الدرس البلاغي العربي سجيناً داخل أنساقه، بل أظهر لنا علاقاته مع بقية الأنساق الخارجية عبر التأويل وتبرير الأصول والمنطلقات، لأن العمري له أسبابه في قضية النشأة وهو يريد إخراجها من نسق ذو ثقافة وحضارة عربية إلى سياق ثقافي عالمي.

2- التداولية والحجاج:

إن الدراسات التداولية أثْرت خطابة أرسطو ووسعتها ولم تُناقض البلاغة العربية، يقول صلاح فضل: "التداولية العلم الذي يُعنى بالعلاقة بين بنية النص وعناصر الموقف التواصلي المرتبطة به بشكل

---

[1]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتدادتها، ص11.

[2] - ينظر: بوعافية محمد عبد الرزاق، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة، ص91.

[3]- بوعافية محمد عبد الرزاق، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة، ص10.

منظم، ويأتي مفهوم التداولية هذا بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يُشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة (مقتضى الحال)"[1]، إلا أن العمري نجده عند استخدامه لمصطلح التداول، كان يقصد به في الغالب الخطاب النفعي والتأثيري الإقناعي.

يقول عبد الله صولة: "إن الحجاج هو البديل عن العنف في (نظرية الحجاج)، إذ يمكن حسب بريلمان و تيتيكاه أن نسعى إلى تحقيق النتيجة نفسها باعتماد إحدى الوسيلتين: العنف أو الخطاب نُقنع بواسطته الناس فيقتنعون، فاعتماد هذه الوسيلة أو تلك"[2]، وقد استخدم العمري الحِجاج لتاريخ البلاغة العربية والدفاع عنها، وذلك في جانب الإقناع. يقول العمري: "يتنازع البيان عند الجاحظ في كتابه البيان والتبيين مفهومان أو وظيفتان[3]:

البيان معرفة: الوظيفة الفهمية. البيان إقناع، أو الوظيفة الاقناعية.

الوظيفة الثانية هي الوظيفة الصريحة، والوظيفة الأولى هي الوظيفة الكامنة المتحكمة في مقدمة الكتاب"[4]، وهما وظيفتان يرتكز عليهما الحجاج، قد استنبطهما العمري من بيان الجاحظ.

3- نظرية القراءة:

نجد هذه النظرية مبثوثة في كتاب العمري «البلاغة العربية أصولها وامتداداتها»، والتي ظهرت في النصف الثاني من القرن العشرين، معلنةً الاهتمام بالقارئ/المتلقي، كما ارتبطت بجمالية التلقي وأفق الانتظار الذي جاء به هانز روبرت ياوس (Hans Robert Jauss)، الذي يؤمن ببناء اللحظات التاريخية الماضية، وإعادة بنائها وفقاً لعصرها، وذلك من خلال الربط بين الماضي والحاضر وعلى هذا الأساس كان عمل العمري ممتداً إلى ياوس، فالتأليفات البلاغية غطّت أزمنة تاريخية، كما

---

[1]- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، المجلس الوطني للفنون والآداب، الكويت، 1990م، ص21.

[2]- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، تونس، ط1، 2001م، ص44.

[3] - ينظر: بوعافية محمد عبد الرزاق، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة، ص95.

[4]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص195.

أن هذا المنجز البلاغي وتلقيه تغير من فترة لأخرى، وكذلك أُفق الانتظار يتغير مثلما يتغير تلقي هذا المنجز، وكذلك منطلقات ياوس في القراءة والتلقي ساعدت العمري على تطوير بعض المواضيع البلاغية، كالاختيارات الشعرية، وكذلك قراءة البلاغيين للقدماء، مثل قراءة بيان الجاحظ من طرف ابن وهب وأبي هلال العسكري، يقول العمري: "فعملية (الاختيار) كانت عملية قرائية نقدية أعقبتها عملية تأويلية لاستخراج الصّور البلاغية، اختيار أبو تمام من الشعر العربي على أُسس غير مُعلنة غير أن انتماء النصوص المختارة وتجانسها، لاشتراكها في خصوصيّة معّينة، سهّل مهمة القارئ الثاني الذي هو الشارح (المرزوقي)"[1]، هذه العملية القرائية نتيجة النظريات المعاصرة التي اشتغل عليها العمري.

فعملية الاختيار الشعري تشبه لحد كبير نظرية التلقي، واختياره لبعض القصائد وتقديمه لبعض الشعراء وتأخيره لآخرين يعود لأسباب وأسس غير معروفة، غير أن هذه النظرية كشفت اللثام عن هذه الغرابة وعن الحلقة المفقودة من قضية الاختيار، يقول العمري: "إن انتماء النصوص المختارة وتجانسها لاشتراكها في خصوصية معينة... هكذا رأى المرزوقي من المفيد أن يُكشف السّر، سر الاختيار أو أساسه"[2]، ومن هنا يبدو أن تجانس النصوص المختارة هو السبب في كشف بعض ما كان خفياً في سبب الاختيار.

كما اعتمد العمري في مشروعه البلاغي السؤال الذي عُرف به ياوس، والذي يكون بدوره أبلغ من الجواب، لأن كل عمل يقدم إجابة عن سؤال ما، والمتلقي يبحث عن هذا السؤال، حيث يقول: "تاريخ البلاغة العربية فعلاً تاريخ أسئلة: أسئلة مباشرة وضمنية"[3]، والعمري بدوره طرح أسئلة ربطت التراث بأسئلة معاصرة وذلك للكشف عن الروافد الكبرى في تاريخ البلاغة العربية.

1- محمّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتدادها، ص**12**.

2- المرجع نفسه، ص**10**.

3- المرجع نفسه، ص**107**.

4- المراجع المعتمدة عند العمري:

عمل العمري في الكتاب يرتكز على التراث العربي، والذي بدوره اتخذه رافداً لمشروعه، لأنه أعاد قراءة التراث البلاغي في ضوء المعطيات الحديثة، فكشف الغامض من المصادر والمراجع وأكمل الناقص منها، كما أن اعتماده على التراث لم يجعله تراثياً، بل ساعدته المؤلفات الغربية على فهم القديم وتدعيمه بالحديث بالنظريات الجديدة والمعاصرة، ومنه انتهى البناء المتمثل في المشروع العمري البلاغي.

إن اعتماد العمري على المراجع والمصادر التراثية لم يكن تعصباً، بل أعاد الاعتبار لهذا التراث ونفض الغبار عن بعض أمهات الكتب وحقّق البعض منها، مثل تحقيقه «للمسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل» للإفراني، وقد نظر العمري إلى التراث البلاغي بنظرة القبول والاعتماد مثلما هو ظاهر عندما تناول الجرجاني والقرطاجني وابن سنان، وكل مشروع من هذه المشاريع يحمل مشروعاً خاصاً به، كما أنه أقصى بعض المراجع من مشروعه البلاغي مثل نهاية الإيجاز للرازي، وكذلك استبعد «الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز» ليحي بن يحي العلوي، كما استعان بمؤلف الجاحظ الذي أعانه على الاتجاه الإقناعي في كثير من المحطات، أو اتجاه البلاغة العامة الذي هيأه حازم القرطاجني.

والناظر في قائمة المراجع والمصادر لدى كتاب "البلاغة العربية أصولها وامتداداتها"، كانت اللمسة المعاصرة حاضرة في هذه المراجع، ومن أبرزها "البلاغة تطور وتاريخ" لشوقي ضيف و"التفكير البلاغي عند العرب" لحمادي صمود، الذي غلب عليه الاتجاه النّسقي، حيث اتخذ من الجاحظ سُلماً ومَعلماً يتحدد من خلاله ما قبله وما بعده ، وتدخل أعمال حمادي صمود ضمن مرحلة الكتابة ذات التوجه الحداثي اللساني، ولهذا استفاد منه العمري الذي يقول "أنجزنا نحن أيضاً

مجموعة من أعمالنا السابقة في البعدين التنظيري والتاريخي مستفيدين من عمل حمادي صمود لتكوين تصور عام"[1]، وهذا اعتراف من العمري بمكانة حمادي صمود في الدرس البلاغي.

والعمري يرى في عمل شوقي التمهيد وسماه (مدرسة التمهيد)، كما اعتمد المؤلف على مصادر ومراجع أخرى في تأليف كتابه هذا، والتي تختلف اتجاهاتها، منها المتخصصة ومنها مراجع عامة فمنها العربية ومنها الأجنبية ومنها المترجمة من كتب غربية، كما اختلفت في الزمان فمنها القديمة ومنها الحديثة، ومن حيث الجغرافيا فمنها المشرقية والمغربية، ومن حيث مجالاتها فمنها النقدية المتخصصة، ومنها العامة، ومنها قواميس ومقالات ومجلات أدبية ولسانية، وقد استثمر العمري هذه المراجع في طرح أفكاره وإبداء ميوله النقدية، ولذلك حاولنا التتبع المباشر للأبواب والفصول، وأين ظهرت هذه المراجع في كتابه «البلاغة العربية أصولها وامتداداتها».

ومع تتبع الكتاب فصلاً فصلاً، ومبحثاً مبحثاً، حول عناوين المراجع والمصادر وكيف وأين استدل بها العمري واشتغل عليها، كانت النتيجة كالتالي:

القسم الأول: الأصول، في هذا القسم بسط العمري القول ونظّر فيه للبلاغة والمجاز، والبلاغة اليونانية، والبلاغة والنقد التطبيقي، وإذا ما ألقينا نظرة على هذه المراجع المعتمدة في هذا القسم الأصول، نجد العمري قد اعتمد مرجع الكشّاف للزمخشري، والذي يعتبر من أمهات الكتب في بابه ولا يستغن عنه باحث أو متخصص، وكذلك كتاب الموازنة للآمدي، وهو كتاب نقدي بامتياز استثمر فيه العمري واستدل ببعض نصوصه، وكذلك مؤلفات أخرى: المثل السائر لابن الأثير ضياء الدين، والشعر والشعراء لابن قتيبة، الذي يعتبر من الكتب المهمة في النقد، حيث أن ابن قتيبة كانت له إسهامات في الشعر وتقسيم الشعراء، وقد فتح قضايا مهمة في النقد لم يفوتها العمري وكذلك طبقات «فحول الشعراء» لابن سلام الجمحّي، الذي كان له السبق في تدوين الطبقات كل شاعر له طبقة، وهو من قسم الشعراء إلى فُحول وغير فحول، كما كانت له دراية بالشعر والشعراء والرواة، وكذلك العمدة لابن رشيق القيرواني، والموشح للمرزبّاني، وتحرير التحبير لابن أبي

[1]– محمّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص 11.

الأصبع الذي اشتغل على البديع، وقد كان له الفضل في تحرير بابه، والبيان والتبيين للجاحظ والدلائل والأسرار للجرجاني، التفكير البلاغي عند العرب لصمود، وقد ركز العمري على كتب الجاحظ لما فيها من البيان، كما أن المسائل التي أوردها الجاحظ التي كانت النواة الأولى للدرس البلاغي، لذا كان لزاماً على العمري أن يبدأ من حيث انتهى الجاحظ، ليربط الماضي بالحاضر ويكون هذا الربط مثل جسر التواصل بين الدرس البلاغي القديم والدرس البلاغي المعاصر، وكذلك كتاب فن الخطابة لأرسطو، واختيار هذه المراجع من طرف العمري لم يكن اعتباطياً بل كان عن دراسة وتقييم شامل لكل مرحلة وما ينبغي لها من مراجع، مثل «مفتاح العلوم للسكّاكي» و «علوم البلاغة للمرّاغي»، كما أن العمري لم يستغن عن كتب التراجم والقواميس مثل لسان العرب لابن منظور وغيرها.

القسم الثاني: الامتدادات أو النماذج الكبرى، هذا الفصل الذي يُبين التطور الحاصل في البلاغة العربية من الأصول والمنابت، إلى الامتدادات والنماذج الكبرى، فقد تعددت مراجعه، وتنوعت بين أجنبية ومترجمة وعربية، ومراجع في التداولية والبنيوية واللسانية، وقد استعان الكاتب بالآراء من منبعها الأصلي حيث اعتمد على كتب غربية، وهذا يدل على سعة ثقافة العمري، وإتقانه للغات الأجنبية واطلاعه على ما يدور في الساحة النقدية العربية والعالمية[1].

ومن أبرز المراجع التي اعتمدها في هذا القسم هي كالتالي: كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، ونقد الشعر لقدامة، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، والدلائل والأسرار للجرجاني ومنهاج البلغاء لحازم القرطاجني، ومفتاح العلوم للسكّاكي، وغيرها من المراجع العربية.

ونستنتج من عرض هذه المراجع أن العمري اعتمد على أمهات الكتب العربية، كما اعتمد على أعمال مترجمة، ومراجع حديثة.

[1] – ينظر: بوعافية محمد عبد الرزاق، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة، ص107.

مقارنة بين العمري وحمادي صمود حول نشأة البلاغة:

حتى تتبين لنا سمات المشروع البلاغي العمري جيداً لابد أن نتوقف على أحد معاصري العمري، إنه حمادي صمود صاحب كتاب «التفكير البلاغي عند العرب»، هذا وإن كان التأليف بينهما ليس ببعيد يصل إلى عشرين سنة، هذه المدة هل هي كافية لإعداد مشروع جديد من طرف العمري؟ وهل استبعاد الجاحظ من المركز البلاغي عنده هو رأي سديد؟ وقبل هذا لابد أن نذكر أنه من القراءات المهمة التي حاولت قراءة النص البلاغي القديم قراءة حمادي صمود، وهي أطروحة جامعية انتهى من انجازها سنة 1980م، وطبعتها الجامعة التونسية سنة 1981م، بعنوان «التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)»، جاء هذا العمل في ظل غياب الاهتمام بالتراث البلاغي، إذ دفع ثلة من الباحثين العرب إلى معاودة قراءة هذا التراث في شكل مشروع، همهم إيجاد حلول لهذا النقص في القراءات، يعلق حمادي صمود على هذا "هذه الجهود لا تخلو على أهميتها من النقص، فالآثار التي تروم الإلمام بمختلف مراحل البلاغة نشأةً وتطوراً واكتمالاً قليلة، وما اتجه منها هذه الوجهة باشر المسألة من وجهة تاريخية حداثية أضعفت جانب التأليف والاستنتاج، كما أنها لم تعتن عناية كافية بالأسس التي يقوم عليها التفكير في جمالية اللغة عند العرب، فجاء جلها تاريخاً للتأليف البلاغي لا للبلاغة ولا يخفى الفرق بين الوجهتين"[1]، وسبب ثورة حمادي صمود على التأليف البلاغي في العصر الحديث، يكمن في عجز هذه المؤلفات في إقحام البلاغة في العلوم الأدبية، وعليه يأتي مشروع حمادي صمود لإعادة قراءة البلاغة على قراءة المكتسبات اللسانية الذي حرص فيه "على مباشرة التراث من منطق التفاعل بينه وبين الحداثة قصد فهمه في ذاته، واستجلاء أبعاد النظرية الأدبية التي يتضمنها ثم لمحاصرة مظاهر المعاصرة فيه التي يمكن استحضارها "[2]، يقول أيضاً حول مشروع قراءته: "يمتد عملنا على ستة قرون وهو إطار يحيط ببداية التفكير البلاغي وبأقصى ما وصل إليه من نضج واكتمال، كما نوعنا المصادر التي استقينا منها مادتنا، فلم نقتصر على المؤلفات التي اشتهرت بمنزعها البلاغي الصرف وحاولنا الاستفادة من كتب

[1]– حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص11–12.

[2]– المرجع نفسه، ص13.

التراث الأخرى التي تناولت ظاهرة اللغة من زوايا مختلفة ومن ثم تضمنت آراء بلاغية يثري جمعها والتنسيق بينها الموضوع"[1]، والملاحظ في تناول مشروع حمادي صمود أنه جعل الجاحظ المرجع في كتابة مشروعه هذا وفق قراءة لسانية، إذ قسّم مشروعه إلى ثلاث: ما قبل الجاحظ والحدث الجاحظي وما بعد الجاحظ، حاول صمود أن يبحث عن تجليات المقولات اللسانية في الحدث الجاحظي، الذي تكلم فيه عن أنواع الدلالات، والعلامة اللغوية، وثنائية المقام/ الحال، واللغة /الكلام، "وهي موضوعات أظهرتها اللسانيات في العصر الحديث من كتاب دي سوسير"[2]، أب اللسانيات ورائدها.

أما العمري فيرى أن من أسباب نشأة البلاغة العربية وسماها بمنابت البلاغة وتربتها، وأرجعها إلى عوامل، متعددة قام بتقسيمها إلى عوامل أولية وعوامل مساعدة، حيث يقول العمري: "العوامل الأولية هي تلك التي أدت إلى ملاحظة الخصوصية الأدبية، سواء كان ذلك من الداخل، أي عن طريق معاناة موضوع البلاغة (النص الأدبي)، أو من الخارج عن طريق معاناة أسئلة أخرى أو دينية أو معرفية عامة، والعوامل المساعدة هي العوامل التي ساهمت في تعميق البحث في الموضوع أو تطويره، وهي تتعلق أساساً بالمثاقفة، وتطور البحث والتأليف في المجالات الفكرية المختلفة"[3]، وهي أسباب تختلف عن التي أوردها صمود في نشأة البلاغة من حيث التقسيم والتشجير، فالعمري في العوامل الأولية لأصول البلاغة العربية أورد خطاطة من قسمين الأولى: الاستكشاف من الداخل وذكر فيه (اختيار الشعر وتقويم الأشعار)، حيث يقول: "وقد أنجزت عن طريق تأمل النص الشعري مباشرة (نقد الشعر واختياره)، أي عن طريق الملاحظة المباشرة والاختيار الفني"[4]، وهذه التشجيرات والخطاطات التي يشرح بها العمري رأيه ربما نابعة من تأثره واشتغاله على المنهج البنيوي الذي يهتم

---

[1]– حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص14.

[2]– المرجع نفسه، ص125.

[3] – محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص20.

[4]– المرجع نفسه، ص21.

بهذه التفاصيل، ثم أدرج عملية الاستكشاف من الخارج والتي استهدفت تقنين اللغة والفكر وتنزيه الدين، وهي نفس الرؤية لصمود فقط تختلف في طريقة السرد.

فحمادي صمود سماها «البلاغة ما قبل الجاحظ»، وبدأ بأول عامل لهاته النشأة هو الشعر حيث يقول: "يكاد يجمع المهتمون بها على أن شأن الشعر فيها لا يوجد في حضارة سواها"[1] وكذلك من الأسباب المهمة التي أوردها صمود «القرآن»، يقول: "فستقوم حول القرآن منه حركة نشيطة تتصل بجملة المشاكل التي طرحها مجيئه في ذلك الوقت المبكر"[2]، وأهم قضية تتصل بالقرآن هي قضية الإعجاز وما صاحبها.

كما يرى صمود أن من الأسباب التي عجّلت بميلاد البلاغة العربية هو تقعيد اللغة، وكذلك المؤثرات الأجنبية، وفي هذا الصدد يقول: "يحتل موضوع تأثر البلاغة العربية بالتراث الأجنبي مكانة هامة في الدراسات المعاصرة"[3]، كما قدم الأسباب التي أدت إلى إثارة هذه القضية وعلى رأسها "المحور التاريخي الحضاري العام، المتضمن النقل عن الحضارة الأجنبية، ومحور نصي يحتوي على جملة من الإشارات المستخلصة من المصادر البلاغية العربية نفسها"[4]، كوجود بعض الكتابات مدسوسة في الإرث العربي تحيل إلى التراث اليوناني أو الفارسي.

وعلى عكس صمود، فإن العمري يرى بأن هناك عوامل مساعدة لهذه النشأة مثل التفاعل الثقافي والخلفية الدينية والنحو والمنطق، كما ركز على تحديد المصطلح وعاب على المشتغلين في هذا الفن من عدم ضبطه جيداً، يقول العمري: "نكتفي هنا بتقديم مثالين أساسين من مشروع عبد القاهر الجرجاني يبينان المنزلق الذي يمكن أن يؤدي إليه أخذ المصطلح خارج السياق"[5]، وبالتالي فعملية ضبط المصطلح لها أهمية كبيرة في العملية البحثية.

---

[1] – حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص23.

[2] – المرجع نفسه، ص34.

[3] – المرجع نفسه، ص60.

[4] – المرجع نفسه، ص60.

[5] – محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص61.

كما أن صمود يقول: "عن التأثير الأجنبي في هذا النطاق فإن الباحث يكاد يجزم بأنه لا أثر ثابت لذلك في هذه الفترة"[1]، كما يستخلص صمود في خاتمة بحثه حول النشأة حيث يرى بأن "الحدث القرآني وحركة جمع اللغة وتقعيدها أكثر العوامل التصاقاً بهذه النشأة"[2]، في بيئتين مختلفتين بيئة اللغويين والنحاة وبيئة المتكلمين.

ويرى صمود أن "النشاط البلاغي في هذه الفترة على أهميته يبدو مشتتاً"[3]، وهي نفس الرؤية عند العمري، ويبدو أنهم يلتقيان في التحقيق في عملية النشأة، حيث يقول: "تطرح أسئلة القراءة في تاريخ البلاغة العربية من خلال عدة زوايا ما تزال مظلمة لحد الآن"[4]، ومن هنا فحمود أورد لفظ الشتات، أما العمري فأورد لفظ الظلام، وهي مصطلحات كلها تصب في اتجاه واحد وهو الغموض.

ثم ينتقل صمود إلى الحدث الجاحظي (التأسيس)، ليتكلم عن الجاحظ ويثري إسهاماته وثناء القدماء عليه مباشرة بعد حديثه عن النشأة، وكأن صمود يربط الجاحظ بالنشأة، وفعلاً جعله في مركز مشروعه، وبدأ به، بينما نجد العمري بعد حديثه عن النشأة اتجه مباشرة إلى البلاغة والنقد التطبيقي في الفصل الأول من كتابه.

من خلال هذه المقارنة البسيطة والتي ارتأينا أن تكون في مبحث النشأة لنقارن بين مشروع الرجلين، بين حمادي صمود ومُحَمَّد العمري، والتي استخلصنا منها أن صمود كان موفقاً إلى حد كبير بالإحاطة بالموضوع من حيث الشرح والاسترسال والتبسيط، على عكس العمري الذي كان يهتم بالغموض وبالخطاطات أكثر.

---

[1] – حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص131.

[2] – المرجع نفسه، ص131.

[3] – المرجع نفسه، ص134.

[4] – مُحَمَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص35.

1- الجاحظ والعسكري "مشروع البيان ":

اهتم العمري بالمشروع الجاحظي والعسكري باعتبارهما كانا سبباً في الرقي بالبيان، وقد بدأ بكتاب «البيان والتبيين» للجاحظ قراءةً، حيث اعتبر "البيان نهاية اجتهادات الجاحظ البيانية وحصيلة أفكاره...وهو تجميع لآراء الجاحظ المتفرقة في سياقات أخرى ووضعها في سياق نظري منسجم، هو سياق البيان بالمفهوم الذي سنقدمه، ما نستند إلى كون البيان جاء في وقت متأخر من حياة الجاحظ التأليفية، إن لم يكن آخر مؤلفاته"[1]، كما يرى أن «البيان والتبيين» مجرد جامع لما كان موجود في عصره، والكتاب لو أردته في البلاغة لوجدت فيه ضالتك، ولو أردته في الأدب لوجدته، ولو أردته في الدين أو في العقيدة وصراع أهل الكلام لوجدت فيه ما تبحث عنه.

والسؤال الذي طرحه العمري: تُرى لماذا كتب الجاحظ البيان والتبيين؟، وهل كانت له غاية واحدة أم غايات؟، وما هي الطريقة التي سلكها للوصول إلى ذلك؟

وحتى يُمحصّ «البيان والتبيين»، لابد أن يُمرّ على "مجموعة من نقاط الارتكاز في عمل الجاحظ يمكن الاهتداء بها، والرجوع إليها خلال عملية استكشاف ما حولها من حُطب، وأمثال وشعر وأخبار، ومناقشات نقدية وسِجالات حِجاجية، والطريق الأول المؤدي إلى فهم عمل الجاحظ يكمن في التفريق بين المركز الذي يتصف بالاستقرار، وإن سار من التعميم إلى التخصيص ما سنبين، والمحيط المتحرك من الوسائل المفضية إلى البيان، تلك الوسائل التي تختلط أحياناً بمفهوم البيان وتكاد تلتبسُ به، يقول الجاحظ: "البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب عن الضمير"[2]، إذن البيان عند الجاحظ على حد قول العمري: هو مفهوم إجرائي، أي هو العملية الموصلة إلى الفهم والإفهام في حالة اشتغالها، فالفهم والإفهام بالوسائل المختلفة مثل الوسائل اللغوية والإشارية خاصة، حيث بدأ كتابه بباب: "كتاب العصا"، و"وجه التدبير في الكتاب إذا طال أن يداوي مؤلفه نشاط القارئ له، ويسوقه إلى حظه بالاحتمال له، فمن ذلك أن يُخرجه شيء

[1]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص189.

[2]- المرجع نفسه، ص191.

إلى شيء، ومن باب إلى باب بعد ألا يُخرجه من ذلك الفن ومن جمهور ذلك العلم "[1]، وقد كانت الإستشهادات الشعرية في البيان كثيرة، ومتفرقة في ثنايا الكتاب، كما نجد في قراءته للبيان قد قسّمه إلى عدّة محاور:البيان معرفة واستكشاف: لقد أخذ نص الجاحظ حين تصدى لتعريف البيان:" فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[2]، إذن الجاحظ توصل إلى هذا المعنى انطلاقاً من الوظيفة اللغوية، ألا وهي التواصل.

عرّج العمري على مبحث البيان بين المعرفة والإقناع، كما أنه ركّز على الجاحظ في هذا الباب وقال أن الكتاب لا يخرج عن ثلاثة محاور: "وظيفة البيان وقيمته،والبيان وأدواته، والبيان العربي، كما يرى أن وظائف البيان قد تجلت في الوظيفة المعرفية التي تهتم بالإفهام وتوصيل المعلومة ونجد الوظيفة التأثيرية (استمالة الآخر)، والتي تقوم على المخاطب في حالة خلاف مع المخاطب له أما الوظيفة الحجاجية فتقوم على كون المخاطبان في حالة خصام "[3]، وهذه هي الوظائف التي حواها الكتاب.

كما تحدث عن فكر الجاحظ في "البيان" حيث يقول: "تحدث الجاحظ من أول الكتاب عن اللسان وما قيل فيه من شعر وأخبار، ثم أعقب ذلك في حديث لاحق بذكر زلاته، ثم عاد للدفاع عن البيان معتبراً أن كل ما قيل في تفضيل الصمت مجرد روايات معدولة عن وجهها"[4]، وهذا ما يبين أن البيان عند الجاحظ يكون في الكلام لا في الصمت.

يعتبر كتاب الصناعتين ومفتاح العلوم حسب قراءة العمري أول محاولة جادة لقراءة البلاغيين العرب، حيث لمّ شملهم وقرّب بين رؤاهم، يقول: "يرى أبو هلال أن أولى العلوم بالتعلم، بعد معرفة الله، علم البلاغة ومعرفة الفصاحة، وتحتل البلاغة هذه المرتبة لعدة اعتبارات يمكن إجمالها في اعتبارين كبيرين: الاعتبار الديني: ويتجلي في معركة الإعجاز، فينبغي من هذه الجهة، أن يقدم التماس هذا

1- محمّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص 92، نقلا عن نقد الشعر عند العرب، ص59.

2- المرجع نفسه، ص195.

3- المرجع نفسه، ص213.

4- المرجع نفسه، ص 208.

العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله"[1]، ويرى أن معرفة الإعجاز واجبة بعد توحيد الله لأن فضائله عظيمة، يقول العسكري في هذا الصدد: "ولهذا العلم، بعد ذلك فضائل مشهورة، ومناقب معروفة منها كأن صاحب العربية إذا أخل بطلبه. .. عفى على جميع محاسنه، وعمي عن سائر فضائله لأنه إذا لم يُفرّق بين كلام جيد، وآخر رديء ولفظٍ حسن، وآخر قبيح وشعرٍ بارد، بان جهله وظهر نقصه"[2]، وقد ذكر العسكري سوء الاختيار لدى علماء اللغة ورواة الشعر.

وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري مكوّن من عشرة أبواب: أولها لموضوع البلاغة وحدودها، وثانيها لتمييز الكلام جيده من رديئه، وثالثها في معرفة صنعة الكلام وترتيب الألفاظ ورابعها في حُسن النظم وجودة الرصف، وخامسها للإيجاز والإطناب، وسادسها للسرقات الشعرية وسابعها للتشبيه، وثامنها للسجع والازدواج، وتاسعها لفنون البديع، والعاشر لحسن المقاطع وجودة القوافي: يرى العمري في قراءته للصناعتين أن هذا الكتاب حاول تجاوز العُسر في كتاب "البيان والتبيين"، يقول العسكري: "رأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملاً على جميع ما يُحتاج إليه في صنعة الكلام نثره ونظمه، ويُستعمل في محلوله ومعقوده"[3]، كما أنه في قراءته للكتاب تطرق إلى المستوى التداولي في هذا المصنف، "فأول ما يجب على المنشئ أن يختاره، الألفاظ والمعاني المناسبة كما يختار اللحظة فإن تبيّن له أن طبيعته لا تسعفه في الكتابة تحول إلى غيرها من الصناعات، ويجب عليه بعد ذلك الموازنة بين أقدار المستمعين وأقدار المعاني، ومخاطبة كل طبقة بما يناسبها، كما تناول أحوال المخاطب في مناسبات عدة"[4]، فالآية القرآنية ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ "[5]، أبلغ وأحسن من أن لو قيلت كلمة أخرى.

---

[1]– محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص283، نقلا عن أبي هلال العسكري في الصناعتين، ص9.

[2]– المرجع نفسه، ص284.

[3]– المرجع نفسه، ص285.

[4]– ينظر: المرجع نفسه، ص287.

[5]– سورة القلم، الآية 42.

وفي هذا يقول: "وهنا يُحيلنا العسكري بحدسه السليم، وفي عبارة صريحة على مبدأ لساني أكدته الدراسات اللسانية الحديثة، يتجلى هذا في ميل اللغة إلى الخفّة واليُسر، والاستغناء عن كل ما لا يُضيف شيئاً إلى الخطاب، وهذا بخلاف الخطاب الأدبي الذي يقوم كلغة ثانية مشاكسة لقانون اللغة الأولى بشتى الصوّر"، وبذلك يكون للعسكري السبق في الإشارة إلى أحد قوانين اللسانيات الحديثة وهو الميل إلى اللغة الميسورة، بعيداً عن الخطاب الأدبي الذي لا يفيد المتلقي.

وبهذا القانون نفسه أقام يوري لوتمان 1922- 1993 من أهم الباحثين الروس في مجال السيميائيات)، حيث "اهتم بالفكر العلمي والذي صاغه لاستثمار التصورات النظرية التي اقترحها بشكل متجدد في مجال السيميائيات"[1].

كما يرى من خلال قراءته للكتاب، أن العسكري تجاوز كلمة السرقة وعزف عنها، لما لها من معنى قدحي، حيث نأى بنفسه من الوقوع في الصراع بين القدماء والمحدثين، حيث أن المتقدمين اتهموا المتأخرين بالسرقة، وخلص العمري من خلال قراءته لمشروع أبي هلال العسكري إلى ما يلي:

- "أن العسكري لم يكن جمّاعة آراء لمن سبقوه كما يظن ذلك البعض.
- لقد كان عمله منتقى من المواد المناسبة من التراث البلاغي الذي توصل إليه.
- كما عرض لعمليات الإنتاج (المرسل والمتلقي والنص).
- العسكري لم يكن له نفس الطريق الذي سلكه ابن وهب ولا قدامة بن جعفر.
- بنى العسكري كتابه على عشرة أبواب متأثراً بأرسطو في فن الشعر"[2]، وبهذا تنتهي قراءة العمري لكتاب الصناعتين.

---

[1]- يوري لوتمان، سيمياء الكون، تر: عبد المجيد نوسي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2011م، ص5.

[2]- مُحَّد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص299.

2- نظرية التلقي في المشروع العمري:

- الجاحظ أنموذجاً:

جاءت نظرية التلقي الألمانية رداً على الاتجاهات النقدية، التي كانت سائدة، والتي ركّز بعضها على مبدع العمل الأدبي، وركّز بعضها الآخر على النص، فأهملوا بذلك العنصر الثالث الهام من عناصر العملية الإبداعية، وهو القارئ أو المتلقي، ولم يلقَ القارئ الاهتمام الكافي إلا بعد أن قامت مدرسة كونستانس الألمانية، في أوائل السبعينيات، بأكبر محاولة لتجديد دراسات النصوص على ضوء القراءة ونادى رائداها: هانز روبرت ياوس، وفولف جانج إيزر، بالانتقال في الدراسة من العلاقة بين الكاتب ونصّه، إلى العلاقة بين القارئ والنص، فهذه النظرية جاءت لتبعث الأدب في حُلة جديدة وفق العملية التواصلية.

لقد اهتمَّت الدراسات النقدية العربية القديمة بظاهرة التلقي التي قامت في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين على أساس نظرية (نظرية القراءة/التلقي)، حاملة لواء الاهتمام ورد الاعتبار للقارئ أو المتلقي الذي غيبته النظرية النقدية القديمة، وتنقسم هذه النظرية إلى قسمين:

نظرية التأثير: تعتمد هذه النظرية على المناهج النظرية والنصّية لاكتشاف استجابات القراء الافتراضيين.

نظرية التلقي: وتهتم "بالكيفية التي تم بها تلقي النص الأدبي في لحظة تاريخية معينة"[1].

[1]- عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، ص143.

واعتماد العمري على ما جاء به ياوس في القراءة والتلقي التاريخي ساعده على بناء تصور لتطور بعض المواضيع البلاغية كمسألة الاختيارات الشعرية، يقول العمري: لا شك أن للمعالجة البنيوية اللسانية جدوى كبيرة في استخراج الأنساق ...غير أننا حاولنا أن نستغل بعض مقترحات جمالية التلقي في بعدها التاريخي "[1]، فمن بين أهم المفاهيم التي اعتمدت هي مسألة أفق الانتظار باعتباره النظام المرجعي بين اللاحق والسابق.

هذا الأفق هو الذي أعاد العمري بناءه في المجال البلاغي، حيث كشف طريقة فهم البلاغيين للأعمال الشعرية والبلاغية للسابقين، مثل قراءة ابن وهب وأبي هلال العسكري لبيان الجاحظ وكذلك سبب اختيار البلاغيين للاختيارات الشعرية، يقول العمري في ذلك: "ومن المباحث التي بنيت أساساً وبشكل جلي في إطار "نظرية التلقي" دراسة الاختيارات الشعرية، فعملية الاختيار كانت عملية قرائية نقدية أعقبتها عملية تأويلية لاستخراج الصور البلاغية، اختار أبو تمام من الشعر العربي على أسس غير معلنة، غير أن انتماء النصوص المختارة وتجانسها، لاشتراكها في خصوصية معينة سهّل مهمة القارئ الثاني الذي هو الشارح: المرزوقي، هكذا رأى المرزوقي من المفيد أن يكشف السر، سر الاختيار وأساسه فكتب في ذلك مقدمة نقدية بلاغية بسط فيها الحديث عن عمود الشعر الذي هو أساس البلاغة في الوقت نفسه"[2]، فالذي اختاره أبو تمام وما علّق به المرزوقي يدرك به أفق أبي تمام الذي يحبذ الخصائص الفنية لتألق الشاعر وهو ما كان في عمود الشعر للمرزوقي يقول العمري: "والأسس الضمنية التي كشف المرزوقي عن جملة منها ستُعيد طرح أسئلتها في الأسرار عند الجرجاني "[3]، كما نجد اختيار الجاحظ للشعر في البيان والتبيين يقوم على أفق آخر هو الثورة على النمط الأموي القائم على الفخر والتهديد واستبداله بنمط الإقناع والتسليم.

---

[1] – محمد العمري، البلاغة العمري أصولها وامتداداتها، ص11.

[2] – المرجع نفسه، ص12.

[3] – المرجع نفسه، ص84.

وقد برز من البلاغيين القدماء في مجال الاهتمام بالمتلقي: الجاحظ، وعبد القاهر الجرجاني وحازم القرطاجني، هؤلاء اعتنوا كثيراً بالمتلقي عناية كبيرة من خلال مؤلفاتهم، وقد أحببنا أن نختصر على الجاحظ في هذا البحث، نظراً لأن كتابه "البيان والتبيين" حوى الكثير مما تنطبق عليه نظرية التلقي، وكذلك مختلف الدراسات التي تناولت الجاحظ تُجمع على أنه كان سبّاقاً إلى كثير من الموضوعات التي طرحها في أدبه، بل كان سبّاقاً إلى كثير من الأفكار والرؤى، التي تبلورت فيما بعد، لتكوّن نظريات علمية وأدبية معروفة.

حيث يقول الجاحظ: "مدار الأمر على البيان والتبيين، وعلى الإفهام والتفهم، وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشدّ استبانة كان أحمد، والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل"[1]، كما أن الجاحظ نفسه ينقل عن الإمام إبراهيم بن مُحَمَّد قوله: "يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع"[2]، ثم علّق على هذا القول "أمّا أنا فأستحسن هذا القول جداً "[3]، من هنا نفهم أن الجاحظ يجعل مفهوم البلاغة في القدرة على الفهم والإفهام.

ولعلَّ أقدم وثيقة نقدية عربية هي صحيفة بشر بن المعتمر التي تُومئ إلى القول بتقريب الشقة بين الخطيب والشاعر، إذ "ينبغي للمتكلم أنْ يعرف أقدار المعاني، ويُوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكلِّ طبقة من ذلك كلامًا، ولكلِّ حالة من ذلك مقامًا، حتَّى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدارَ المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[4]، ففي هذا المقام اشترط الجاحظ شروطاً بين أقدار المستمعين، كما اشترط أقداراً للمعاني.

---

[1]– الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص11.

[2]– المرجع نفسه، ج 1، ص87.

[3]– المرجع نفسه، ج1، ص87.

[4]– المرجع نفسه، ج 1، ص13.

وبخصوص المتلقي والمرسل يقول الجاحظ: "للكلام غاية، ولنشاط السَّامعين نهاية"[1]، فالمتكلم من هذا المنطلق له نهاية تحدده، وللمتلقي/السامع أيضاً نشاط محدد ونهائي، وقد سار في كتابه "البيان والتبيين" حسب تصميم منطقي عرض من خلاله العملية البيانية بمختلف مراحلها، وكذلك النص الجيد "يمتلك وظيفة تأثيرية ...وعندما نفكر حسب المفهومات البلاغية، فإننا ننظر مبدئياً إلى النص من زاوية المستمع/القارئ، ويجعله لمقصدية الأثر، ففي النموذج البلاغي للتواصل يحتل متلقي الخطاب المقام الأول"[2]، هنا تكمن قيمة المتلقي في البيان والتبيين.

لقد حاول الجاحظ ابتكار طرق للمحافظة على نباهة المتلقي وكسب انتباهه، وأدخل ضروباً من الحيل كي لا يمل القارئ حين قال مشيراً إلى كتابه البيان والتبيين: "ووجه التدبير في الكتاب إذا طال أن يداوي مؤلفه نشاط القارئ له، ويسوقه إلى حظه بالاحتيال، فمن ذلك أن يخرجه من شيء إلى شيء، ومن باب إلى باب، بعد أن لا يخرجه من ذلك الفن ومن جمهور ذلك العلم"[3]، إنّ إشارة الجاحظ هذه تدل على إدراكه لأبعاد التلقي ومراعاة حالة القارئ ونفسيته وضرورة مشاركة القارئ في إظهار النص.

والنقاد المعاصرون الذين قرؤوا أدب الجاحظ بعمق، وحاوروا نصوصه حواراً واعياً، منهم مصطفى ناصف، فبعد أن أجرى حواراً مع نصوص كتاب الحيوان، ومنها نصوص عدّة تتعلق بالذباب، عرضها الجاحظ بأسلوب مرح، فيه هزل وسخرية، وأبرز النصوص ذاك الذي يسرد قصة قاضي البصرة عبد الله بن سوار في صراعه مع الذباب، حيث يقول: "وأنا أنزه القارئ، أن يقف عند

[1]– الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص99.

[2]– هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، ص16.

[3]– المرجع السابق، ج3، ص366.

هذا القص المحبوب، لا يتجاوزه، أُنزه نفسي عن الانخداع بفكرة الخبر والسرد والواقع والتلهّي، وتسرية القارئ، وترفيه الجاحظ عن نفسه، وعنك أيضاً"[1]، إن الجاحظ كان يؤسس من خلال السخرية والرمز لمجتمع جديد يؤمن بتعدد الثقافات، فيستوعب المتعارضات، ويرفض ثقافة الإلغاء والتناحر.

ومن خلال استقراء نصوص الجاحظ نجده يلمح إلى "الصراع الاجتماعي المسالم الذي يستهوي الجاحظ في حكاياته ورموزه، هذا تدافع أفكار أو اتجاهات أو فئات من المجتمع لا أظن الجاحظ خالص الوجه للرضا والإشراق والترويح عن النفس. الجاحظ مهموم بثقافة ومجتمع من خلال التأويل، قلّ أن يعبّر عن فكرة الأزمة تعبيراً مباشراً "[2]. فاستعمال الرمز واللا مباشرة كانت تستهويه، وكان ظاهر في أغلب مؤلفاته.

والجاحظ قد شغلته كثيراً قضية الاتصال البشري، وركّز عليها منذ البداية، وفي جميع مؤلفاته ويمكن القول: إنه في كتاب البيان والتبيين، عالج هذه المسألة بكل جوانبها، إذ طرح قضية اللغة ووظائفها وعلاقتها بالمجتمع والمتكلم، ومن خلال تناوله لمتاعب الاستعمال اللغوي، توصل إلى أن سوء الاستعمال اللغوي، قد يقضي على التواصل، ولهذا نراه يستهل كتاب البيان والتبيين بقوله: "اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل"[3]، فالفتنة بنوعيها: فتنة القول وفتنة العمل، تناقض التواصل، ولهذا ألحّ على التحذير منها أكثر من مرة، وفي أكثر من موضع.

ومما قدمناه من آراء للجاحظ التي طوّرها رواد نظرية التلقي الألمانية، ألم يكن الجاحظ من أوائل الذين حوّلوا الاهتمام إلى القارئ أو إلى محور النص القارئ؟ ألم يطرح قضايا بين أهمية القراءات المتعاقبة في صياغة التاريخ الثقافي أو الأدبي، ويظهر دور القارئ في إعادة إنتاج النصوص وتأويلها من خلال التفاعل معها؟ وإذا كان الأمر خلاف ذلك، فَلِمَ طالب بقارئ متحرر، وبقراءة مُوحدة لجزئيات الكتاب؟ نعم لقد كان الجاحظ واعياً بكل هذه المسائل التي تتعلق بالتلقي الأدبي.

---

[1] – مصطفى ناصف، محاورات مع النثر العربي، عالم المعرفة، الكويت، ع218، 1997م، ص89.

[2] – المرجع نفسه، ص89–90.

[3] – الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص2.

3- قراءة العمري لمشروع السكاكي (الأدبي):

إن مشروع السكاكي البلاغي هو مشروع ضخم حيث يقول: "وقد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب دون نوع اللغة ما رأيته لابد منه وهي عدة أنواع متآخذة فأودعته علم الصرف بتمامه وإنه لا يتم إلاّ بعلم الاشتقاق المتنوع على أنواعه الثلاثة وقد كشفت عنها القناع"[1] والسكاكي يريد تأسيس علم للأدب بدأه بعلم الصرف والاشتقاق ثم النحو، ومن هنا يقول العمري: "الأدب يساوي عنده في نظرنا الخطاب السليم الناجع، من هذا المفهوم يتحدث السكاكي عن علم الأدب الذي نراه تصوراً مبكراً لما يسمى حالياً علم النص"[2].

فالسكّاكي يرى بأن المعاني والبيان تتمة لعلم النحو وعلم الحد والاستدلال تتمة لعلم البيان والمعاني، ويعتبر السكاكي من مرافقي عبد القاهر الجرجاني في «الأسرار» و«الدلائل» في مسائل اللفظ والمعنى، ومطابقة الكلام أو مناسبته للمقاصد.

وفي ضوء الدراسات التداولية والمنطقية تمكن العمري من كشف مركز مشروعه، إذ "كان السكاكي يبحث عن مكونات علم الأدب العلم الذي يصون المتحدث من الخطأ في مطابقة الكلام لقواعد اللغة أولاً ثم لأحوال ومقامات المتخاطبين ثم يعطيه حسناً وقبولاً ثالثاً"[3]، ويجعل البديع قسماً ثالثاً يمكن الاستغناء عنه لأنه غير نابع من سؤال المناسبة للمقاصد أو المناسبة التداولية، وخطة السكاكي في «المفتاح» هي كيف يتعامل الإنسان مع لغته صوتاً وصرفاً وتركيباً ودلالةً عبر مختلف وجوهها وتنظيماً لاستراتيجيات التخاطب.

---

[1]- محمد بوعافية، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجيدة، ص154، نقلا عن أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، ص496.

[2]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص50.

[3]- محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص46.

كما يعرّف السكّاكي البلاغة بأنها "بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حداً له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها"[1]، ولم يستطع السكّاكي ألَّا يمر على مفهوم البلاغة لأنه مفهوم مركزي ومحوري ومنه سيستفيد أهم شارح له وهو القزويني، ويأتي بمطابقة الكلام لمقتضى الحال بعد فصاحته.

وقد تبين للعمري وجود اتصال بين علم البيان والاستدلال من خلال كلام السكّاكي عن إيراد الدليل بأوجه متعددة، ويلجأ العمري إلى القراءة النسقية الداخلية بين السكّاكي وابن أبي الإصبع (ت654هـ)، ويرى العمري بأن هذا الأخير لم يهتم بقضايا المقام ومناسبة الكلام للمقاصد التداولية في كتابه «تحرير التحبير»[2]، فعلم المعاني عند السكّاكي يلتقي مع البيان عند الجاحظ.

كما ننوه إلى أهمية عمل العمري، والتي تكمن في اكتشاف منطقة تقاطع النحو والمنطق والشعر ليصل إلى عاصمة البلاغة، لكن تغليب السكّاكي للنحو والمنطق جعله يغيب السؤال البلاغي خاصة في مباحث المعاني، عندما لم يتساءل متى يقع الحذف ولماذا يكون التقديم، وهي نقطة سجلها عليه العمري، وقد علّق عليها "بالبلاغة المأسورة لدى النحو والمنطق"[3]، وأن من جاء بعد السكّاكي حوَّل البلاغة إلى خادمة فاتنة مريبة، ويعمل الجميع على اختزالها وعدم توسيع الكلام عليها[4].

هكذا انتهت قراءة العمري لمشروع السكّاكي، وهو مشروع ضخم بالنسبة للعمري، لذلك ركز عليه كثيراً رفقة مشروع ومنجز حازم القرطاجني.

---

[1]– أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1987م، ص526.

[2]– ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تح: حفني مُحَمَّد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 2012م.

[3]– ينظر: مُحَمَّد العمري، أسئلة البلاغة، ص147.

[4] – ينظر: مُحَمَّد بوعافية، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجيدة، ص159.

4- الشعرية في المشروع البلاغي، الخفاجي وحازم القرطاجني أنموذجاً:

لما كان اعتناء ابن سنان الخفاجي وحازم القرطاجني بالشعر، هذا ما جعل العمري يثري بهما مشروعه البلاغي، ومن المعلوم أن الشعرية مازالت تثير جدلاً واسعاً في الدراسات الأدبية الحديثة الغربية والعربية، إنّ أول من استخدم مصطلح الشعرية هو أرسطو 322ق.م في كتابه (فن الشعر) حين استقصى الخصائص الفنية للأجناس الأدبية التي شكلت حضوراً متميزاً في عصره.

كانت قراءته لسر الفصاحة للخفاجي (ت466هـ) جسراً لمشروع صوتي، حيث "حاورت الخلفية المذهبية، وعبّرت عن الممكن إنجازه في تأسيس بلاغة الخطاب"[1]، كما يكشف العمري عن مشروع الخفاجي الممتد إلى معطيات الشعرية المعاصرة.

ويقرأ العمري «سر الفصاحة» في إطار ما قدمه الجرجاني في كتابيه، حيث يقول: "فالجرجاني خرج من مأزق اللفظ والمعنى، بخلاف الخفاجي الذي وقع فيه، بفضل صورة المعنى ومعنى المعنى، وهو مفهوم وسط بين المجرد والحسي، كما يلخّص قراءته لابن سنان في سر الفصاحة، بأن بلاغة ابن سنان بلاغة كلاسيكية، كما يتميز مشروع الخفاجي: بالمحافظة على الأعراف والسنن والاعتدال والانسجام والتناسب"[2].

لقد اهتم ابن سنان بالجانب الصوتي، وأهمل الجانب العقلي والمنطقي، فالعقلية اليونانية والمنطق الأرسطي ظاهرة مؤثرة في سر الفصاحة، وهي بلاغته، كما يذهب العمري في قراءته – خاصة من الجانب النظري – إلى توضيح دعائم المنجز البلاغي لابن سنان، "هذا الأخير جعل البيان جامعاً بين الفصاحة والبلاغة، مبتعداً به عن المفهوم الجزئي الذي قدمه السكاكي"[3].

---

[1]– محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص405.

[2]– المرجع نفسه، ص422.

[3]–المرجع نفسه، ص461.

أما الشعرية في كتاب حازم القرطاجني فتمثل "مشروعاً بلاغياً متكامل البناء، لم يُسبق إليه من قبل، فهو يؤسس لمنطلقات جديدة للقوانين البلاغية، خاصة وأنه اعتنى بالشعر، وبين سقيمه من صحيحه، كما اعتمد في ذلك المرجعية اليونانية في مفهوم الشعرية، واعتمد في مشروعه على شرح الفلاسفة، فاتجه صوبهم واطلع على تصوراتهم للشعر، ولكنه أدرك قصور نظرتهم في الشعر مما جعله يتبنى إستراتجية جديدة في قراءته لأرسطو أكثر إنتاجية، حاول بها صياغة المنطلق النظري العلمي المتعلق بالأسس البلاغية للصناعة الشعرية، لاحظ القرطاجني انتكاسة الإبداع والدراسة الأدبية في عصره، فوضع منهاجه لتصحيح وتقويم الوضع، وذلك بتأسيس منطلقات جديدة، لأنه وجد أن الجهل قد ران على قلوب شعراء المشرق المتأخرين وأعمى بصائرهم عن حقيقة الشعر منذ مائتي سنة، فلم يوجد فيهم على طول هذه المدة من نحا نحو الفحول، فخرجوا بذلك عن مهيع الشعر ودخلوا في محض التكلم"[1]، من خلال كلام حازم هذا يتضح أنه عايش مرحلة ضعف وانتكاسة حاول معالجتها ،ولذا اتجه إلى البلاغة المعضودة بالنحو والمنطق.

5- قراءة العمري للمنجز البلاغي للجرجاني:

إن البحث في المنجز البلاغي العربي لا يمكن أن يتجاوز جهود عبد القاهر الجرجاني، وخاصة كتابيه «أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز»، حيث بدأ بأسرار البلاغة، وذلك بعمل خطاطة للكتاب من ثلاث مداخل هي كالتالي:

المدخل الأول: يكشف المعنى الصحيح والمعنى التخييلي، وهذا الجزء من عمل العمري يريد من خلاله أن يحل مشكلة السرقات الشعرية ببيان المشترك بين الشعراء.

المدخل الثاني: يفاضل فيه العمري بين المعنى القريب والمعنى البعيد، وذلك بالمقارنة بين مختلف الصور البيانية من استعارة وتشبيه لإبراز خاصية الشعر التخييلية.

[1]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، ص18.

المدخل الثالث: يهتم العمري بالمجاز بأقسامه: "المجاز المفرد وهو (كل كلمة أريد لها ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول)، ومجاز في الجملة وهو (كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه من العقل لضرب من التأول)، والمجاز العقلي (الحكمي) وهو (الذي يجعله الجرجاني في الإثبات لا في المثبت أي لا يقع في المفرد)"[1].

يجعل العمري كتاب دلائل الإعجاز في السياق التداولي، معتبراً الدلائل مكملاً للأسرار، حيث أن كلا الكتابين ينطلقان من أن البلاغة هي في المعنى، ويهيمن على الأسرار التخييل المرتبط بالمحاكاة التي يربطها العمري بمحاكاة أرسطو، كما يغلب على «الدلائل» النحو، و لا تختلف قراءة العمري «للأسرار» عن الدلائل، حيث كشف عن مفتاح مهم في قراءته للدلائل، فالجرجاني كان يتعامل مع اللفظ والمعنى باعتبارهما مادة وصورة، واهتمام الجرجاني بقضية اللفظ والمعنى وطغيانها على كتابيه راجع لكونهما "عماد الظاهرة اللغوية وأساس العبارة، وكل كلام من أي زاوية كان هو في جوهره تحديد لماهية كل منهما وتحليل للكيفيات التي يتم بها تلاحمهما سواء على مستوى اللفظ المفرد أو في مستوى التركيب"[2]، وهذا التحليل من حمادي الصمود، والذي يعتبر أن الجرجاني قد أفاد البلاغة العربية خاصة في المسائل المتلاحمة اللفظ والمعنى.

[1]– ينظر: الجرجاني، أسرار البلاغة، ص272.

[2]– حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص414.

المبحث الرابع: الاستدراكات

بعد قراءة كتاب «البلاغة العربية أصولها وامتداداتها» للعمري، والذي كان موضوعه الأساس والمتمثل في الدراسة قراءةً من الصعب أن تجد سقطات في الكتاب، مضموناً وشكلاً وحتى منهجياً لِما يُمثل العمري من وزن في باب التأليف البلاغي، والمجهودات التي يقوم بها داخل المملكة المغربية أو خارجها، وحتى على مستوى الجامعة من ملتقيات وندوات ومقالات، لذا كان الكتاب تحفة في بابه، إلا أن هذا لا يمنع من وجود بعض الاستدراكات على الكتاب، وقد سبق وأن ذكرنا أنه استفاد من كتاب حمادي صمود «التفكير البلاغي عند العرب» لأنه المسافة الزمنية بينهما تصل إلى عشرين سنة، وعند إجراء مقارنة بسيطة بين حمادي صمود والعمري حول إسهامات الجاحظ والذي هو محور الدراسة عند صمود، ولتكن عملية حوارية بين الرجلين لنكتشف تلك المعركة الصامتة التي يخوض غمارها صمود في كتابه والذي ألّفه منذ عشرين سنة قبل صدور كتاب العمري.

من خلال ما كتبه العمري لا يتبين لنا موقف العمري الواضح من الإسهام الجاحظي من حيث درجة حدّته، إلاّ من خلال تتبع المواضع التي كشف فيها عن هذا الموقف في عدد مؤلفاته، وهذا التتبع والتفكيك وإعادة التركيب كفيل في نظر القراءة التي نقدمها بالكشف عن أصوات متعددة للعمري حول القضية نفسها، فهذه الأصوات المتعددة لمتكلم واحد تكشف لنا الحرج الذي عاناه العمري في الالتفاف على ما أجمع عليه جمهور الباحثين حول قيمة الإسهام الجاحظي ومركزيته وتجنبهم مطالبته بما لا يحق أن يطالب به من جودة الانجاز في زمن لم يكن يتيح بالمقاييس الموضوعية نصف ما أنجزه الجاحظ، يقول شارل بيلا: "ولا ندري إلى أية ظروف أو تأثيرات مباشرة يدين الجاحظ في انقطاعه إلى العلم، في حين أن لا شيء يؤهله لمهنة الكتابة، ولم نتوصل بعد إلى الإجابة عن هذه المسألة الشائكة إجابة مرضية، ولذا وجب علينا الاكتفاء بالظواهر دون محاولة تفسيرها إلا بنسبتها إلى ذكاء حاد فريد في نوعه، وميل وراثي للتفكير العقلي"[1].

[1]– شارل بلا، الجاحظ في البصرة، بغداد وسامراء، تر: إبراهيم الكيلاني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1986م، ص350.

نعرض فيما يلي رأي العمري حسب درجة حدته التي تغيرت نسبياً من مؤلف إلى مؤلف لنقف على الخلفيات التي تختبئ وراء تعدده وتلونه حسب السياقات:

في كتاب البلاغة العربية أصولها وامتداداتها: يفيدنا فحص فهرس هذا الكتاب في تبيان المكانة التي يمنحها صاحب الجاحظ، فمن مجموع تسعة فصول موزعة على قسمين، خمسة للأول، وأربعة للثاني على مدخل عام من 37 صفحة، لا يخصص الكاتب سوى فصل واحد، هو الفصل الرابع للجاحظ (ص187- 211)، أي 24 صفحة من مجموع 519 صفحة هي حجم الكتاب، وزيادة على ضآلة حجم ما خصّص للجاحظ من صفحات في كتاب يؤرخ لتطور البلاغة العربية، لم يذكر العمري اسم الجاحظ في عنوان الفصل: "المعرفة والإقناع، من البيان إلى البلاغة"، ولا في عناوين المباحث التابعة له، وهي أربعة مباحث على التوالي: مشروع البيان، مفهوم البيان، المعرفة والإقناع مكونات الخطاب البياني، المحتوى الفكري للبيان[1].

ومع أن الفهرس لا يمثل سوى عتبة من عتبات الخطاب، فإن القراءة الفاحصة له تدلنا دلالة واضحة على أن صاحبه أراد مخالفة خطة صمود واحتفائها الكبير بالجاحظ من خلال ذكره المتكرر في عناوين الفصول الثلاثة الكبرى للكتاب: البلاغة ما قبل الجاحظ، الحدث الجاحظي، البلاغة مابعد الجاحظ[2]، غير أن حرص العمري على مخالفة الجاحظ بأي ثمن يتضح لنا أكثر في أحكامه القاسية البعيدة عن أي موضوعية في متن الكتاب، وتحديداً في الفصل الصغير الذي خصص للجاحظ والذي أشرنا إلى بعض تفصيلاته الشكلية قبل قليل، فماذا قال العمري عن الإسهام الجاحظي؟ وكيف قيّمه؟

متن الكتاب /الموقف من الجاحظ: سنقتصر في هذا الموضع على إيراد مقتطفات قوية الدلالة على غرابة موقف العمري من الجاحظ، تلك الغرابة التي لا نجد لها مبرراً موضوعياً، سوى أن الجاحظ يدفع ثمن الموقع المركزي الذي اعترف به له جمهور الباحثين، وخاصة حمادي صمود في كتابه «التفكير

[1]– يراجع في ذلك فهرس كتاب مُحَمَّد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها.

[2]– يراجع في ذلك فهرس كتاب حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب.

البلاغي عند العرب»، والذي يبدو أن العمري تجنب مناجزته علمياً في الظاهر وعمد إلى نقضه جملةً وتفصيلاً في الباطن، دون أن يعلن عن ذلك، أو تبنياً صريحاً.

يقول العمري: "لم يقدم لنا الجاحظ ما يدل على تفريقه بين المستوى المعرفي العام للبيان والمستوى الإقناعي التداولي الخاص، بحيث يكون الثاني، الذي اعتبرناه بلاغياً، مستوى من مستويات الأول الذي اعتبرناه لغوياً أو سيميائياً"[1]، وفي هذا ما فيه من إغفال والتفاف على ما أصبح معروفاً ومعتمداً في الدراسات الجاحظية من اعتذار للجاحظ عن العيوب المنهجية التي تكشفت للمعاصرين بسب الفارق الزمني وما نتج عنه من تراكم معرفي مكنهم من إعمال الأدوات المنهجية المتعددة والرؤى العلمية الناضجة، للكشف عن اختلالات التأليف ونقائصه، ومع إن هذه الأدوات تتيح ذلك، إلا أنها تبيح لنا أن نطالب الكاتب بما يتعدى الأفق المعرفي لعصره، ومن الغريب اللافت للانتباه أن العمري نفسه يشير إلى ذلك في كتاب آخر، دون أن يوظفه في تلطيف حكمه حول الإسهام الجاحظي"[2]، وفي موضع آخر من الفصل نفسه وفي الكتاب نفسه يؤكد العمري حكمه بأكثر حدة حيث قال: "لم يكد الجاحظ ينتهي من تعريف البيان باعتباره فهماً وإفهاماً بالوسائل اللغوية وغير اللغوية حتى قايض كلمة بيان بحكمة بلاغة. . قلنا قايض لأنه لم يقدم أي بيان يرتب العلاقة بين المفهومين...ولا غرابة في ذلك فقد كانت البلاغة في تصور ذلك العصر تنظر إلى الخطابة بقدر ما سينظر البديع إلى الشعر"[3].

وفي الكتاب الجماعي: البلاغة والخطاب، الصادر عام 2014، يساهم العمري بمقالة عنوانها: البلاغة العامة في حوار الرصد والتنظير من الشعر إلى الخطاب، يخصصها لأبي حيان التوحيدي وتقييمه، ومعبراً عن أسفه لعدم إدراجه في كتابه «البلاغة العربية أصولها وامتداداتها» ومعتذراً

---

[1]– محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص200.

[2]– محمد العمري، البلاغة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، دط، 2005م، ص39–40.

[3]– المرجع نفسه، ص201.

عن ذلك، كما يقول: "إن هذه المقالة نوع من الاستدراك الذي يراد به رد الاعتبار لهذا العلم الذي لا يصح تجاهله في كتابة تاريخ البلاغة العربية من منظور معاصر"[1].

والمستغرب في لائحة الاتهام التي تفنن العمري في إعدادها ورفعها في وجه الجاحظ ومناصريه هو مطالبته بإنجاز بحثي وتأسيس نظري مفاهيمي، لم يتحقق إلا في العصر الحديث، متجاهلاً الاستباق الذي حققه الجاحظ في عصره عندما حدّد موضوع علم العلامات، وعدد أصنافها، وهو ليس بالشيء الهين، يقول العمري: "لهذا أعتقد أن الرؤية البيانية عند الجاحظ مهما اتسعت، خاصة في بعض النصوص التي أوردها في باب البيان وفي الحيوان، وذكر فيها أصناف الدلالات على المعاني وهي رؤية بيانية لغوية تهتم بالبيان باللفظ بياناً متفاوتاً أي بلاغياً، أما ذكر أصناف البيان الأخرى فكان عملية إخلاء لتحديد الموضوع الذي هو الدلالة باللفظ أي (باب العبارة) حسب خطاطة ابن وهب..."[2]، ما العيب في أن ينطلق الجاحظ من المفهوم العام للبيان (العلامة السيميائية) كمقدمة ليتعرض بعد ذلك للبيان اللغوي (العلامة اللغوية)، وهما يمثلان الشق النظري، ثم ينتهي إلى التطبيق على الممارسة البيانية، ممثلة في الخطابة التي قال عنها العمري نفسه: "ولا غرابة في ذلك فقد كانت البلاغة في تصور ذلك العصر تنظر إلى الخطابة بقدر ما سينظر البديع إلى الشعر"[3].

---

[1]– محمد العمري، البلاغة العامة في حوار الرصد والتنظير من الشعر إلى الخطاب، ضمن كتاب جماعي: البلاغة والخطاب، إعداد وتنسيق: محمد مشبال، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2014م، ص: 15، 48.

[2]– محمد العمري، الموازنات الصوتية، في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1991م، ص73.

[3]– محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص201.

العمري محاوراً لصمود:

يحضر صوت حمادي صمود في نص العمري حضوراً طاغياً حتى وإن لم يستشهد به العمري مرة واحدة في متن كتابه، فقد قضت خطة العمري الذي وجد في كتاب صمود صورة لما كان يعتزم كتابته من منظور معاصر، أن يتجاهل محتويات الكتاب وطروحاته وآراءه، وأن يموّه خطته بأن يخرب الحجر الأساس فيها وهو مركزية الجاحظ في النظرية البلاغية العربية القديمة، باعتباره مؤسساً ملهماً لكل من جاء بعده، فيضمن بذلك لكتابه موقع القراءة الخلافية لموضوع تاريخ البلاغة العربية، غير أن ذلك المشروع الذي تحكمت فيه الاعتبارات الذاتية شعورياً ولا شعورياً، دفع العمري دفعاً إلى التضحية بالجاحظ ليصنع منجزه النادر، كيف تميز ذلك ؟ الهاجس الذي صاحب العمري هو: كيف أتميز عن صمود ولا يكون كتابي نسخة منه بنسبة من النسب، أو صورة من الصور؟لم يكن بإمكان العمري أن يتجنب الإشارة إلى كتاب حمادي صمود، وهو الكتاب الذي صدر بحوالي عشرين سنة قبل كتابه سنة 1980، إلحاحاً يكشف عن رغبته في تبرير استئناف القول في الموضوع[1] فكأنما يكفي مرور عشرين سنة على تأليف كتاب ليكون مشروع استئناف القول في موضوعه بالضرورة والحتم.

والعمري صاحب الكتاب الأحدث صدوراً اختار الاعتماد على التضمين والإضمار في الرد على صمود ونقض أطروحته التي قامت أساساً على تثمين صريح وواضح للإسهام التنظيري الجاحظي، في حين اختار العمري أن يخصص له مكاناً ضيقاً، ليس أدل على تدني قيمته من تفضيل ابن وهب عليه.

كتاب العمري لا يذكر فيه الجاحظ على الإطلاق في العناوين الكبرى وفهرس كتاب صمود يذكر فيه الجاحظ ضمن عناوين الفصول الثلاثة الكبرى المكونة لمتن الكتاب، ويدلنا هذا على موقفين متناقضين: التحجيم مقابل التضخيم، والطرفية مقابل المركزية[2].

---

[1]- ينظر: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص10.

[2]- ينظر: فهرس الكتابين «البلاغة العربية أصولها وامتداداتها» و«الفكير البلاغي عند العرب».

وعليه فقد تم تحجيم جهد الجاحظ، والانتقاص منه، وتقليل قيمته، وعلى العكس فإن حمادي صمود اختار الجاحظ كمركز للنظرية البلاغية العربية يقول: "ولم نخرج عن هذا الالتزام إلا في القسم المخصص للجاحظ لأنه، في اعتقادنا، وضع الأسس الكبرى للتفكير البلاغي بحيث تبقى الموالية تستلهم مادته وتستحضر مقاييسه"[1].

وفي الأخير نعرض هذه الملاحظات المخصصة لأهم ما جاء في الحوار بين العمري وصمود حول الجاحظ:

- التوظيف الواضح والفعال لمفاهيم اللسانيات والعلوم اللغوية المعاصرة بارز في مقتطفات صمود.

- الحياد العلمي تجاه موضوع البحث وهو ما يتجلى في اللغة المستخدمة، والتي تخلو من المفردات والعبارات ذات الدلالة التمجيدية أو القدحية، ففي حين يستخدم صمود مفردات من قبيل: لا يجري مصطلح...، يتسع، يضيق، يرتبط به معنى فرع، وهي أفعال مسندة إلى الظواهر النصية ذاتها، دلالة قدحية تحيل إلى الجاحظ مثل: قايض، لم يقدم لنا الجاحظ، كان يتحدث، صار يتحدث، وغيرها.

- رغم اطلاعه على الكتاب، لا يستحضر العمري أيًّا من طروحات صمود التي اعترف بغناها المعرفي، وسلامتها المنهجية، وموافقتها أحياناً لما تنتهي إليه معالجاته وتحليلاته من نتائج أو أحكام وهذا أكثر ما يقلق القارئ الذي يخّيب العمري أفق انتظاره، تخييباً لا يفضي إلى بناء أفق انتظار جديد، بقدر ما يؤبد خيبة القراءة التي تهدم أفقاً معرفياً قائماً ولا تقيم مكانه أي أفق آخر.

[1]– حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص12.

ونحن بصدد الانتهاء، ظهرتلنا معالم النتائج المتوصل إليها،بعد أن خضنا غمار البلاغة العربيةمع مشروع العمري المسمى «البلاغة العربية أصولها وامتداداتها»، والذي عمل فيه على رصد اتجاهات الدرس البلاغي تنقيباً عليه، وتحقيقاً في تطوره و في كل مراحله.

ومن خلال البحث عن روافد النشأة، نستطيع القول أن البلاغة العربية مبنية على أساس الازدواج بين التخييلي الشعري، والخطابي التداولي، وأن الدينامية البلاغية كانت تسير جنباً إلى جنب مع الحركة الأدبية و تطورها، وكانت البلاغة تشارك هموم العصر المعرفية وتوجهاته العلمية، فأثبتت كلمتها وفاعليتها، ومن خلال الدرس البلاغي الجديد تمكنت الدراسات العربية من كشف مكونات الحجاج والشعرية وبلاغة الأنواع، فالاحتكاك بالوافد الجديد قدّم خدمة جليلة للبلاغة العربية، وكذلك ما حدث للفلاسفة المسلمين مع الإرث اليوناني.

لقد انتهى عمل العمري إلى إلقاء مسح شامل وفق تصور مبني ومؤسس على معطيات منطقية وتوثيقية في بناء جزء ضاع من النسق البلاغي العربي الخاص بالقرطاجني وغيره من البلاغيين القدماء وكذلك رصده للآليات المتبعة لتصور المنجزات التي من خلالها تمكنّا من استيعاب امتداداتها وأثرهاعلى البلاغة العربية.

والنتائج التي استخلصناها هي كالآتي:

1- كانت البلاغة ملكة فطرية عند العرب.
2- كان للقرآن الكريم دور كبير في النضج البلاغي العربي.
3- مشروع العمري يمتد إلى ما يزيد عن ثلاثة عقود، ولذلك خلصنا إلى نتيجة مفادها أن جزئيات عمل العمري قابلة للتوسع.
4- اعتماد العمري على المقولات البنيوية في الكشف عن أنساق المشاريع البلاغية.
5- اعتماده على نظرية التلقي.

6- البلاغة الجديدة لا يمكن حصرها في اتجاه واحد بل تصبح بلاغات نوعية ضمن البلاغة الجديدة، والهدف الأسمى هو تأسيس البلاغة العامة التي تدرس كل أنواع الخطاب اللغوي والمرئي والسمعي، راصدة التخييليوالإقناعي،فكان حلم العمري هو الوصول بالبلاغة العربية إلى العالمية.

7- ساهمت قراءة الفلاسفة المسلمينلشعرية أرسطو وخطابتهفي فهم فعاليات البلاغة.

8- كان مشروعالسكاكي وحازم نموذجاًلقراءة مشاريع أخرى.

9- عكست الامتدادات الكبرى خلفيات بين اتجاهات متعددة، منها بيئة الجدل والإقناع والبحث عن المعرفة التي أنتجت بلاغة البيان والتبيين، وأخرى تحاور السابق من خلال بناء مشروع يناقضه في مقولاته.

خاتمة

الفهرس

قائمة المصادر

والمراجع

الفصل الأول

البلاغة العربية

نشأتها وتطورها

الفصل الثاني

قراءة في العتبات النصية لكتاب العمري

الفصل الثالث

قراءة في مشروع

العمري في ضوء

الدرس البلاغي الجديد

مقدمة

أولاً: القرآن الكريم برواية ورش

ثانياً: المصادر

- أرسطو طاليس:

1- **الخطابة، الترجمة العربية القديمة**، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، لبنان، 1979م.

2- **فن الشعر**، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، 1973م.

- ابن أبي الإصبع:

3- **تحرير التحبيرفي صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن**،تح: حفني مُحَمَّد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 2012م.

- الأصفهاني:

4- **الأغاني**، مكتبة إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1994م، ج8، ج11.

- الجاحظ:

5- **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط7، 1998م، ج1، ج2، ج3، ج4،.....

6- **الحيوان**، تحقيق: عبد السلام هارون،مكتبة مصطفى بابي وأولاده، مصر، ط5، 1943م.

- حازم القرطاجني:

7- **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تحقيق: الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1981م.

- ابن رشيق القيرواني:

8- **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تحقيق: مُحَمَّد محي الدين عبد الحميد، نشر المكتبة التجارية، القاهرة، 1934م، ج1.

- الرماني أبو الحسن:

9- **النكت، ثلاث رسائل في الإعجاز**، تحقيق: مُحَمَّد خلف الله، ومُحَمَّد خليل سلام، دار المعارف، مصر، ط2، 1968م.

- السكاكي:

10- **مفتاح العلوم**،ضبط وتعليق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1987م.

- ابن سلام الجمحي:

11- **طبقات فحول الشعراء**، تحقيق: محمود شاكر، مصر، دت.

- القاضي الجرجاني:

12- **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، طبع وشرح: أحمد عارف الزين، صيدا، لبنان، 1931م.

- عبد القاهر الجرجاني:

13- **أسرار البلاغة**، تحقيق: مُحَمَّد رشيد رضا، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1933م.

- عبد الله ابن المعتز:

14- **كتاب البديع**، شرح وتحقيق: عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2012م.

- ابن منظور:

15- **لسان العرب**، دار صادر، بيروت،دت، مج9.

ثالثاً: المراجع

- إحسان عباس:

16- **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط4، 1983م.

- أحمد حسن الزيات:

17- **دفاع عن البلاغة**، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1967م.

- أحمد درويش:

18- **النص البلاغي في التراث العربي والأوربي**، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م.

- أحمد الشايب:

19- **الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية)**،مكتبة النهضة، مصر، ط5، دت.

- أحمد ضيف:

20- **مقدمة لدراسة بلاغة العرب**، مطبعة السفور، القاهرة، ط1، 1967م.

- أحمد مصطفى المراغي:

21- **علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع**، المكتبة البصرية، صيدا، بيروت، 2005م.

- أحمد مطلوب:

22- **البحث البلاغي عند العرب**، منشورات دار الجاحظ للنشر، بغداد، الجمهورية العراقية، د ط، 1982م.

23- **عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده**، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1973م.

24- **القزويني وشروح التلخيص**، مكتبة النهضة، بغداد، ط1، 1967م.

25- **معجم المصطلحات البلاغية وتطورها**، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1987م، ج2، ج3.

26- **مناهج بلاغية**، وكالة المطبوعات بالكويت، بيروت، ط1، 1973م.

- أحمد مطلوب – حسن بصير:

27- **البلاغة والتطبيق**، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ط2، 1999م.

- أمين الخولي:

28- **فن القول**، دار الفكر العربي، القاهرة، 1947م.

29- **مناهج تجديد في النحو والبلاغة والأدب**، دار المعرفة، ط1، 1961م.

- بدوي طبانة:

30- **البيان العربي (دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية)**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط2، 1958م.

31- **علم البيان (دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى)**، دار الثقافة، بيروت، ط5، 1976م.

- جورجي زيدان:

32- **تاريخ آداب اللغة العربية**، مراجعة وتعليق: شوقي ضيف، دار الهلال، مصر،دت، ج3.

- جيرارد جينيت:

33- **مدخل لجامع النص**، ترجمة: عبد الرحمن أيوب، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية)، بغداد، دط، دت.

- حافظ إسماعيل العلوي:

34- **اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة (دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته)**، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط1، 2009م.

- عبد الحق بلعابد:

35- **عتبات جيرارد جينيت من النص إلى المناص**، تقديم: سعيد يقطين، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008م.

- حمادي صمود:

36- **التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)**، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 1981م.

- حميد لحمداني:

37- **بنية النص السردي «من منظور النقد الأدبي»**،المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1991م.

- رجاء عيد:

38- **فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور**، منشاة المعارف، الإسكندرية، ط2، دت.

- عبد الرحمن طه:

39- **تجديد المنهج في تقويم التراث**، المركز الثقافي العربي، المغرب، بيروت، ط4، 2012م.

- عبد الرزاق بلال:

40- **مدخل إلى عتبات النص (دراسة في مقدمات النقد العربي القديم)**، تقديم: إدريس نقوري، أفريقيا الشرق، المغرب، 2000م.

- سامي أبو زيد – منذر كفاني:

41- **الأدب الجاهلي**، دار المسيرة، عمان، ط1، 2011م.

- شارل بيلا:

42- **الجاحظ في البصرة، بغداد وسامراء**، ترجمة: إبراهيم الكيلاني، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1986م.

- شوقي ضيف:

43- **البلاغة تطور وتاريخ**، دار المعارف، القاهرة، ط9، دت.

44- **النقد**، دار المعارف، القاهرة، ط5، دت.

- صلاح فضل:

45- **بلاغة الخطاب وعلم النص**، عالم المعرفة، 1992م.

- الطهطاوي:

46- **تلخيص بارز**، موفم للنشر، الجزائر، 1991م.

- عبد العزيز عتيق:

47- **في البلاغة العربية علم البيان**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1985م.

- علي الجارم – مصطفى أمين:

48- **البلاغة الواضحة المعاني البيان البديع**، دار المعارف، مصر، دت.

- علي عشري زايد:

49- **البلاغة العربية تاريخها مصادرها مناهجها**، مكتبة الشباب، القاهرة، 1982م.

50- **النقد الأدبي والبلاغة في القرنين الثالث والرابع (المصادر والقضايا)**،مكتبة الشباب، القاهرة، ط2، 1995م.

-عبد العليم إبراهيم:

51- **الموجه الفني لمدرسي اللغة العربية**، دار المعارف، مصر، ط4، دت.

- عماد حسن مرزوق:

52- **الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم عند المعتزلة**، مكتبة بستان المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط1، 2005م.

- غنارسكيريك– نلز غيلجي:

53- **تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة إلى القرن العشرين**، ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، مراجعة: نجوى نصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2012م.

- فضل حسن عباس:

54- **البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية**، دار الفرقان، ط2، 1999م.

- فريق البحث في البلاغة والحجاج:

55- **أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم**، إشراف حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب منوبة، تونس، دت.

- عبد القادر حسين:

56- **المختصر في تاريخ البلاغة**، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001م.

57- **فن البلاغة**، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1984م.

- عبد الكريم شرفي:

58- **من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة**، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، دت.

- عبد الله صولة:

59- **الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية**، دار الفارابي، منشورات كلية الآداب والفنون واللسانيات، تونس، ط1، 2001م.

- عبد الله عبد الغني سرحان:

60- **آراء بلاغية للشيخ عبد المتعال الصعيدي**، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، القاهرة، 2012م.

- عبد الله الغذامي:

61- **الخطيئة والتكفير**، النادي الثقافي جدة، السعودية، ط1، 1985م.

- مازن المبارك:

62- **الموجز في تاريخ البلاغة**، دار الفكر، دت.

- مُحَمَّد العمري:

63- **أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2013م.

64- **البلاغة العامة في حوار الرصد والتنظير من الشعر إلى الخطاب**، ضمن كتاب جماعي: **البلاغة والخطاب**، إعداد وتنسيق: مُحَمَّد مشبال، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2014م.

65- **البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1999م.

66- **البلاغة بين التخييل والتداول**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2005م.

67- **في بلاغة الخطاب الإقناعي**، أفريقيا الشرق،المغرب،ط2، 2002م.

68- **الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية**،أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1991م.

- مُحَمَّد بن صالح العثيمين:

69- **دروس البلاغة**، مكتبة أهل الأثر، الكويت، ط1، 2004م.

70- **شرح الأصول من علم الأصول**، دار البصيرة، مصر، دت.

- مُحَمَّد بنيس:

71- **الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاته**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2001م.

- مُحَمَّد عابد الجابري:

72- **تكوين العقل العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط10، 2009م.

- مُحَمَّد مشبال:

73- **البلاغة والأصول**، أفريقيا الشرق، المغرب، 2007م.

74- **البلاغةوالخطاب**، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2014م.

- مُحَمَّد مفتاح:

75- **دينامية النص (تنظير وانجاز)**، المركز الثقافي العربي، لبنان، ط3، 2006م.

- مُحَمَّد مندور:

76- **النقد والنقاد المعاصرون**، مكتبة نهضة مصر، دت.

- مصطفى الصاوي الجويني:

77- **البلاغة العربية تأصيل وتجديد**، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1985م.

- مصطفى صادق الرافعي:

78- **إعجاز القرآن الكريم وبلاغته النبوية**، دار الكتاب العربي، بيروت، دت.

- مصطفى ناصف:

79- **محاورات مع النثر العربي**، عالم المعرفة، الكويت، العدد218، 1997م.

-هنريش بليث:

80- **البلاغة والأسلوبية**، ترجمة: مُحَمَّد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، 1999م.

- يوري لوتمان:

81- **سيمياء الكون**، ترجمة: عبد المجيد نوسي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2011م.

رابعاً: المجلات والمواقع الالكترونية

82- بن عيسى بالطاهر، الدرس الصوتي في التراث البلاغي وتيسير البلاغة في كتب التراث، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، الأردن، العدد68، 1425هـ/2005م.

83- عبد العزيز البشري، ثورة على علوم البلاغة، محاضرة ألقيت في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وقد خص بها البشري مجلة الهلال في شهر يناير 1937م.

84- مجلة اتحاد كتاب الانترنت المغاربة:.ueimarocains.wordpress.com

85- معجم المعاني الجامع الالكتروني:.http://www.almaany.com

خامساً:مذكرات التخرج

86- بوعافية مُحَمَّد عبد الرزاق، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة، جامعة مُحَمَّد لمين دباغين، سطيف، 2015/2014م.

مقدمة .....(أ-ب-ج)

الفصل الأول: البلاغة العربية نشأتها وتطورها

البلاغة اليونانية 11-14

أقسام البلاغة اليونانية 15- 16

التأثير اليوناني في البلاغة العربية 17-19

العصر الجاهلي والإسلامي 19-22

صدر الإسلام 22-24

عصر بني أمية 24-26

التأليف البلاغي التطور والازدهار 27

مجاز القرآن لأبي عبيدة 28

معاني القرآن للفراء 29

تأويل مشكل القرآن 29

صحيفة بشر بن المعتمر 30

البيان والتبيين والحيوان للجاحظ 31

الكتاب لسيبويه 32

الكامل للمبرد 33

قواعد الشعر لثعلب 33

البديع لابن المعتز 35

عيار الشعر لابن طباطبا 36

الموازنة للآمدي 36

الوساطة للقاضي الجرجاني 37

نقد الشعر لقدامة بن جعفر 38

نقد النثر لابن وهب 38

الصناعتين لأبي هلال العسكري 39

العمدة لابن رشيق 40

سر الفصاحة 40

النكت في إعجاز القرآن 41

إعجاز القرآن للباقلاني وإعجاز القرآن لعبد الجبار 42

دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني 44

الكشاف للزمخشري 46

نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي 48

مفتاح العلوم للسكاكي 49

المصباح في علوم المعاني والبيان والبديع لبدر الدين بن مالك 50

كتاب المثل السائر لابن الأثير 51

تلخيص المفتاح والايضاح للقزويني 52

حوصلة 54

الفصل الثاني: قراءة في العتبات النصية لكتاب العمري

عتبة المناص 57

المناص النشري الافتتاحي 58

المناص التأليفي 59

عتبة العنوان 64

العنوان في الدراسات الغربية والعربية.....67-69

خطة الكاتب 75

الفصل الثالث: قراءة في مشروع العمري في ضوء الدرس البلاغي الجديد

دواعي التجديد واتجاهاته 82

البلاغة وبداية التجديد 83-89

اتجاهات التجديد 87

قراءة المعاصرين للبلاغة العربية 91-102

المشروع البلاغي الجديد 103-120

مقارنة بين العمري وحمادي صمود حول نشأة البلاغة 120

الجاحظ والعسكري مشروع البيان 124

نظرية التلقي في المشروع العمري 128-132

قراءة العمري لمشروع السكاكي..... 133-134

الشعرية في المشروع البلاغي 135

قراءة العمري للمنجز البلاغي للجرجاني 136

الاستدراكات 138

خاتمة 145

قائمة المصادر والمراجع 148